# كتاب الاعتبار

# الباب الاول

# حروب واسفار

## معركة قنسرين ضد الفرنجة سنة ٥٣٠هـ

ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيرا ، وكان وصل من الامام الراشد بن المسترشد ، رحمهما الله ، ابن بشر(١) رسولا الى اتابك يستدعيه فحضر ذلك المصاف ، وعليه جوشن مذهب ، فطعنه فارس من الأفرنج ، يقال له ابن الدقيق(٢) ، في صدره أخرج الرمح من ظهره ، رحمه الله ، بل قتل من الافرنج خلق كثير .

وأمر أتابك ، رحمه الله ، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن ، فكانت قدر ثلاث الاف رأس .

ثم ان ملك الروم عادخرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، واتفق هو والأفرنج ، خذلهم الله ، وأجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها ، فقال لي صلاح الدين(٣) « ما ترى ما فعله هذا الولد المذكل ؟ » يعني ابنه شهاب الدين أحمد ، قلت : « وأي شيء فعل ؟ » قال : « اذفذ الي يقول ابصر من يتولى بلدك » ، قلت : « واي شيء عملت ؟ » قال : « نفذت الى أتابك أقول« تسلم موضعك )» ، قلت : « بئس ما فعلت ! اما يقول لك أتابك : لما كانت لحما أكلها ، ولما صارت عظما رماها علي ؟ » قال : « فأي شيء أعمل ؟ » قلت : « أنا اجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان أخذ الموضع وقتلنا كان بآجالنا ، وأنت معذور » ، قال : « ما قال لي هذا القول احد غيرك » .

وتوهمت انه يفعل ذلك ، فحملت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر ، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال : « يقول لك صلاح الدين : نحن بعد غد سائرون إلى الموصل فاعمل

شغلك المسير » فورد على قلبي من هذا هـــم عظيم وقلت : « أتـــرك أولادي وأخوتي في الحصار وأسير إلى الموصل ؟» ، فاصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأننته في الرواح الى شيزر لأحضر لي نفقـــة ومالا نحتاج إليه في الطريق . فأذن وقال : « لاتبـــطىء » ، فـــركبت ومضيت إلى شيزر ، فبدا منه ما أوحش قلبي ، وعزل ابني مبـــارك ونفذ إلى داري ، فرفع كل ما فيها مـــن الخيام والســـلاح والرحـــل وقبض على ابن اختي ، وتتبـــع أصـــحابي ـــ فـــكانت نكبـــة كبيرة رائعة .

## ( من شيزر إلى دمشق )

فاقتضت الحال مسيري الى دمشق ، ورسل أتابك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق ، فاقمت فيها ثماني سنين ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها ، رحمه الله ، العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك الى اشتمال الامير معين الدين ، رحمه الله علي ، وملازمتي له ، ورعايته لاسبابي .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله ، وفرطت في أملاكي ما كان ذكية لاخرى . كل ذلك والامير معين الدين ، رحمه الله ، محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي ، مقر بالعجز عن أمري ، حتى أنه أنفذ إلي كاتبه الحاجب محمود المسترشدي ، رحمه الله ، قال : « والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الاخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك . لكن الناس كلهم قد تمالؤوا علي ومالي بهم طاقة ، وحيث كنت ، فالذي بيننا من المودة على أحسن حاله(٤ ) » . ففي ذلك أقول :

معين الدين كم لك طوق من
بجيدي مثل أطواق الحمام
تعبدني لك الاحسان طوعا
وفي الاحسان رق الكرام
فصار الى مودتك انتسابي
وان كنت العظامي العصامي
الم تعلم باني لانتمائي
اليك رمى سوادي كل رام
ولولا انت لم يصحب شماسي
لقسر دون إعذار الحسام

ولكن خفت من نار الاعادي

عليك فكنت إطفاء الضرام(٥ )

# ( من دمشق الى القاهرة )

فكان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة ، فقربني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع علي بين يديه ، ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار ، وخولني دخول الحمام ، وانزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة ، وآلتها من النحاس ، كل ذلك لايستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة في إكرام وإحترام وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج.

فوقع بين السودان ، وهم في خلق عظيم ، شر وخلاف : بين الريحانية ، وهم عبيد الحافظ ، وبين الجيوشية( ٦ ) والاسكندرية والفرحية ، فكان الريحانية في جانب ، وهؤلاء كلهم في جانب ، متفقين على الريحانية ، وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص ، فاجتمع من الفريقين خلق عظيم ، وغاب عنهم الحافظ ، وترددت إليهم رسله ، وحرص على ان يصلح بينهم . فما أجابوا إلى ذلك ، وهم معه في جانب البلد ، فاصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية ، فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة ، ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر .

وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ يذكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، وكان مريضا على شفا ، فمات ، رحمه الله ، بعد يومين ، وما انتطح فيها عنزان .

وجلس بعده الظافر بأمر الله ، وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخا كبيرا ، والامير سيف الدين ابو الحسن علي بن السلار ، رحمه الله ، إذ ذاك في ولايته( ٧ ) ، فحشد

وجمع وسار إلى القاهرة ، ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونفذ إلينا زمام القصور( ٨ ) يقول : « ياأمراء هذا نجم الدين وزيري ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره » فقال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » فرجع الزمام بهذا الجواب .

فقال أمير من الامراء شيخ يقال له لكرون : « ياأمراء ، نترك علي بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال : « فقوموا » فذفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا الى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال : « اخرج إلى الحوف( ٩ ) ، اجمع واحشد واذفق فيهم ، وادفع ابن السلار » فخرج لذلك .

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفرد لي موضعا في الدار أكون فيه ، وابن مصال في الحوف قد جمع من لواته( ١٠ ) ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقا كثيرا . وقد خرج عباس ركن الدين ، وهو ابن امرأة علي بن السلار ، ضرب خيمة في ظاهر مصر ، فغدت سرية من لواته ، ومعهم نسيب لابن مصال ، وقصدوا مخيم عباس ، فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم .

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار ، وقال : « هؤلاء الكلاب ـ يعني جند مصر ـ قد شغلوا الأمير ـ يعني عباسا ـ بالفوارغ ، حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة ، والأمير مواقفهم » قلت : « يامولاي ، نركب إليهم في سحر ، وما يضحي النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى ، قال : صواب أبكر في

ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال ضربت رقبته .

وجمع العسكر مع عباس وسيره الى ابن مصال ، فلقيه على دلاص( ١١ )، فكسرهم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل ، وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة ، ولم يبق لسيف الدين من يعانده ولا يشاققه .

وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ولقبه الملك العادل ، وتولى الامور .

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمر له الشر ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استمالهم وأذفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه ، وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل وافتراق اصحاب العادل ، وانا تلك الليلة عنده .

فلما فرغ الناس من العشاء وافترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه ، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التي هم فيها مجتمعون ، وكانت الدار ، لما أراده الله من سلامة بعضهم ، لها بابان : الواحد قريب من دار العادل ، والاخر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب ، قبل وصول أصحابهم إلى الباب الاخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب ، وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجالة ، كانوا أصدقاء غلماني نخبئهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منهم قتل .

ومن عجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلا من السودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى علو داري ، والرجال بالسيوف خلفه ،

فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق( ١٢ ) كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة ، فثبت عليها ، ثم نزل ودخل من كم( ١٣ ) مجلس قريب منه فوطىء على منارة نحاس ، فكسرها ، ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه .

واشرف أولئك الذين كانوا خلفه ، فصحت عليهم وأطلعت إليهم الغلمان ، دفعوهم ، ودخلت الى ذلك الأسود ، فنزع كساء كان عليه وقال : « خذه لك » ، قلت « أكثر الله خيرك ، ما احتاجه » واخرجته وسيرت معه قوما من غلماني ، فنجا .

وجلست في صفة في دهليز داري ، فدخل علي شاب سلم وجلس ، فرأيته حسن الحديث حسن المحاضرة ، هو يتحدث وانسان استدعاه فمضى معه ، ونفذت خلفه غلاما يبصر لماذا استدعي ، وكنت بالقرب من دار العادل ، فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبته ، فقتل ، وعاد الغلام ، وقد استخبر عن ذنبه ، فقيل له : « كان يزور التواقيع » ، فسبحان مقدر الاعمار ، وموقت الاجال .

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان .

وتقدم إلي الملك العادل ، رحمه الله ، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وقال : « تأخذ معك مالا وتمضي إليه لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرج من هاهنا نخرب غزة » .

وكان الأفرنج ، خذلهم الله ، قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت : « يامولاي ، فان اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه ، اي شيء تأمرني ؟ » قال : « إن نزل على طبرية ، فأعطه المال الذي معك ، وإن كان له مانع ، فديون( ١٤ ) من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الافرنج ، واكتب إلي بوصولك لآمرك بما تعمل » .

ودفع إلي ستة آلاف دينار مصرية ، وحمل جمل ثياب دبيقي( ١٥ ) وسقلاطون ومسنجب ودمياطي( ١٦ ) وعمائم ، ورتب معي قوما من العرب أدلاء .

وسرت وقد ازاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل ، فلما دنونا من الجفر( ١٧ ) قال لي الادلاء« هذا مكان لايكاد يخلو من الافرنج » ، فامرت اثنين من الادلاء ركبا مهرين ، وسارا قدامنا إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا ، والمهاري تطير بهما ، وقالا : « الفرنج على الجفر ! » ، فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورفاقا من السفارة كانوا معي ، ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت : « تقدمونا ، وأنا في إثركم » ، فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد إلي واحد منهم وقال : « ما على الجفر أحد ، ولعلهم ابصروا عربانا » . وتنازع هو والادلاء . فنفذت من رد الجمال ، وسرت .

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود ، فأخذناه ، وتفرق أصحابي فأخذوا رجلا آخر وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت : « ياشيخ ، أنا في حسبك » ، قلت : « انت آمنة ، مالك ؟ » قالت « قد اخذ اصحابك لي ثوبا وناهقا ونابحا وخرزة » ، قلت لغلماني : « من كان أخذ شيئا يرده » .

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، قالت : « هذا الثوب » .

واحضر آخر قطعة سندروس ( ١٨ ) قالت : « هذه الخرزة » ، قلت : « فالحمار والكلب ؟ » قالت : « الحمار قد ربطوا يديه ورجليه ، وهو مرمي في العشب ، والكلب مفلوت يعدو من مكان الى مكان » .

فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم على عظامهم ، قلت « ايش أنتم ؟ » قالوا : « نحن من بني أبي » ، وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لايأكلون إلا الميتة ويقولون : « نحن خير العرب ، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولازمن ولا أعمى » ، وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم ، قلت : « ما جاء بكم الى هاهنا ؟ » قالوا : « لنا بحسمى( ١٩ ) كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها » قلت : « وكم لكم هنا ؟ » قالوا : « من عيد رمضان لنا هاهنا ، ومارأينا الزاد بأعيننا » ، قلت : « فمن أين تعيشون ؟» قالوا « من الرمة ، ( يعذون العظام البالية الملقاة ) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف ( شجر بتلك الارض ) ونتقوت به » ، قلت : « فكلابكم وحمركم ؟» قالوا : « الكلاب نطعمهم من عيشنا ، والحمر تأكل الحشيش » ، قلت : « فلم لادخلتم إلى دمشق ؟» قالوا : « خفنا الوباء » ، ولا وباء اعظم مما كانوا فيه ! ، وكان ذلك بعد عيد الاضحى .

فوقفت حتى جاءت الجمال ، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا ، وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين ، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، وقلت:« لاتقيموا هاهنا يسبوكم الافرنج » .

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب والعشاء قصرا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الارض وقلت للغلمان : « تفرقوا في طلب الجمال ، وعودوا إلي ، فأنا ما أزول من مكاني » ، فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم ، فعادوا كلهم إلي وقالوا : « ما لقيناهم ، ولا ندري كيف مضوا » ، فقلت:« نستعين بالله تعالى ونسير على الذوء » ، فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب .

وفي الادلاء رجل يقال له جرية فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا علم انا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحة وجعل يقدح ، وهو على

الجمل ، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ، فقصدنا النار حتى لحقناهم ، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا .

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل ، رحمه الله ، قال لي « لاتعلم الادلاء الذين معك بالمال » ، فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي مجذوب معي وسلمته إلى غلام ، وجعلت ألفي دينار ونفقة لي وسرفسار( ٢٠ ) ودنانير مغربية في خرج على حصان مجذوب معي وسلمته الى غلام ، فكنت اذا نزلت جعلت الاخراج في وسط بساط ، ورددت طرفيه عليها ، وبسطت فوقه بساطا آخر ، وأنام على الاخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي ، يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما ، فاذا شداهما على الجنائب ركبت وأيقظت أصحابي وتهممنا بالرحيل .

فنزلنا ليلة في تيه بني اسرائيل ، فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجذوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار يريد يشده بالسموط ، فزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني : « اركب ، اركب » .

وركضت خلف البغل فما لحقته ، وهو كأنه حمار وحش ، وحصاني قد أعيي من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت « اتبع البغل كذا » ، فمضى وقال : « والله يامولاي ، مارأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت اطلب ، والبغل أهون مفقود » .

ورجعت الى المنزلة واذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف ، فكانه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار .

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، على دمشق ، وقد وصل إلى بصرى الأمير اسد الدين شيركوه رحمه الله ، فسرت معه إلى العسكر فوصلته ليلة الاثنين ، وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به ، فقال لي : « يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما » ، قلت له : « فتأذن لي ان أديون من محرومي الجند قوما آخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلا من اصحابك في ثلاثين فارسا ليكون الاسم لك » » قال : « أفعل » .

فديونت إلى الاثنين الاخر ثمانمائة وستين فارسا وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق .

وسير معي نور الدين الامير عين الدولة الياروقي في ثلاثين فارسا فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم( ٢١ ) ، فنزلت فيه ودخلت صليت في المسجد ، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه ، فجاء أمير من الاتراك الذين كانوا معي يقال له برسق ، يريد الدخول في ذلك الشق الضيق ، قلت :« أي شيء تعمل في هذا ؟ صل برا » قال : « لا إله الا الله ، أنا حرام إذا حتى لاأدخل في ذلك الشق الضيق ؟» قلت : « أي شيء تقول ؟» قال : « هذا الموضع ما يدخل فيه ولدزنا ، ما يستطيع الدخول » .

فأوجب قوله أن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت ، وخرجت ، وأنا ـ الله يعلم ـ ما أصدق ما قاله ، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا .

ومعي في الجند براق الزبيدي معه عبد له أسود دين كثير الصلاة ، أدق ما يكون من الرجال وأذبهم( ٢٢ ) فجاء إلى ذلك الموضع ، وحرص بكل حرص على الدخول ، فما قدر يدخل ، فبكى المسكين وتوجع وتحسر ، وعاد بعد الغلبة عن الدخول .

فلما وصلنا عسقلان سحر ، ووضعنا اثقالنا عند المصلى ، صبحونا الافرنج عند طلوع الشمس ، فخرج الينا ناصر الدولة ياقوت ، والي عسقلان ، فقال : « ارفعوا ، ارفعوا اثقالكم » ، قلت : « تخاف لايغلبونا الافرنج عليها ؟» قال : «نعم » ، قلت : « لاتخف ، هم يرونا في البرية ويعارضونا ، إلى أن وصلنا إلى عسقلان ، ما خفناهم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟!

ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثم رجعوا إلى بلادهم جمعوا لنا وجاءونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة عسقلان ، فخرجنا إليهم ، وقد خرج راجل عسقلان ، فدرت على سرب الرجالة وقلت : « ياأصحابنا ، إرجعوا إلى سوركم ، ودعونا وإياهم ، فان نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا ، وإن نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم » ، فامتنعوا من الرجوع ، فتركتهم ومضيت إلى الافرنج ، وقد حطوا خيامهم ليضربوها ، فاحتطنا بهم ، وأعجلناهم عن طي خيامهم ، فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين .

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من السوقيين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء ، فرجع الأفرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا ، فانهزمت الرجالة ، الذين رددتهم فما رجعوا ، ورموا تراسهم ، ولقينا الأفرنج ، فرددناهم ، ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة من عسقلان .

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون ، وقالوا: « كان ابن منقذ أخبر منا ،قال لنا : ارجعوا ، ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا » .

وكان أخي عز الدولة ابو الحسن علي ، رحمه الله ، في جملة من سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان ، وكان ، رحمه

الله ، من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا للدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل( ٢٣ ) وقتالها ، فوصلناها وقاتلناهم ، ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كبيرة ، فوقفت في أصحابي وقدحنا نارا وطرحناها في البيادر ، وصرنا نتنقل من موضع إلى موضع ، ومضى العسكر تقدمني ، فاجتمع الأفرنج ، لعنهم الله ، من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للافرنج ، لمغاداة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا .

فجاءني فارس منهم يركض وقال : « قد جاء الأفرنج !» فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج ، وهم ، لعنهم الله ، أكثر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء ، أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لاينزل إليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم في قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين .

ومازال الأفرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم ـ والقتال بيننا ـ لايجدون في طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه ، ثم عادوا عنا .

وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم ، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم ، كما نصروا علينا ، كنا أفنيناهم .

فأقمت بعسقلان لحاربة الأفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يبنى( ٢٤ ) وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى .

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل ، رحمه الله ، يستدعيني . فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي ، رحمه الله ، بعسقلان ، فخرج عسكرها إلى قتال غزة

فاستشهد ، رحمه الله ، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم .

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار ، رحمه الله ، فإنه كان جهز عسكرا إلى بلبيس ، ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن باديس ، لحفظ البلاد من الأفرنج ، ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، رحمه الله ، فأقام مع أبيه في العسكر اياما ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأذكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورتب معه قوما من غلمانه ، يهجم بهم على العادل في داره إذا ابرد في دار الحرم ونام ، فيقتله .

وقرر مع استاذ من استاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل جدته ، فهو يدخل إليها بغير استئذان .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه ، فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه ، فقتلوه ، رحمه الله ، وقطع رأسه وحمله إلى الظافر ، وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل ، لكنهم في دار السلام ، وهو قتل في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين : فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته( ٢٥ ) .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة ، وخلع

عليه الظافر وفوض إليه الأمـر ، وابنه نصر مخـالطه ومعـاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه ، لعلمه بمذهب القـوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفذوهم ويحوزوا كلما لهم ، حتـى يتفانوا ، فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعـاتبان ، وعبـاس يردد عليه الكلام ، وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه كلمة بعد كلمة يشـتاط منها عباس ويزيد في لومـه وتـأنيبه ، فقلت لعبـاس : « يامـولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ اجعـل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمله ، مـا أتبـرأ مـن خـطأه ولا صوابه ، أي شيء هو ذنبه ؟ ماأساء إلى أحـد مـن أصـحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بنفسـه حتـى ذلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة » ، فأمسك عنه والده ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصـير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرتـه يومـا وقـد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثـم أغفله أياما وحمل إليه من الكسوات من كل نوع مـالا رأيت مثله مجتمعـا قبله ، وأغفله اياما . وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسـون ألف دينار ، وأغفله اياما . وبعـث إليه ثـلاثين بغـلا رحـلا ( ٢٦ ) وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها .

وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مـع ابـن عباس لا يفسح لي في الغيبـة عنه ليلا ولا نهـارا ، أنام ورأسي على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جـاء مـرتفع بـن فحل ، فتحدث معه إلى ثلث الليل ، وأنا معتزل عنهما ثـم انصرف . فاستدعاني وقال : « أين أنت ؟» قلت : « عند الطاقة اقرأ القرآن ، فإني اليوم ما تفرغت اقرأ » ، فابتدأ يفـاتحني بشيء ممـا كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك ، ويريد بي أقوي عزمه على سوء ما قد حمله

عليه الظافر ، فقلت : « يامولاي ، لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئا تلعن عليه إلى يوم القيامة » . فأطرق ، وقاطعني الحديث ، ونمنا .

فاطلع والده على الأمر ، فلاطفه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متنكرين ، وهما اتراب ، وسنهما واحدة ، فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السيوفيين ، ورتب من أصحابه نفرا في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ورماه في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجالس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر ، وقال : « ما لمولانا ما جلس للسلام ؟» فتبلد الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : « مالك لاتجاوبني ؟» قال : « يامولاي مولانا ما ندري أين هو » ، قال : « مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » . فمضى ورجع وقال : « ما وجدنا مولانا » .فقال عباس : « ما يبقى الناس بلا خليفة ، ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد نبايعه» ، فمضى وعاد وقال : « الموالي يقولون لك : نحن ما لنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر ، والأمر لولده بعده ، قال : « اخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : « أخوته قتلوه » ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف استاذ من استاذي القصر ، فأخذه عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم

دخل به ، وهـو حـامله ، إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحـافظ : الامير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن اخيهم الامير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر مـن ألف رجـل مـن المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خـرج مـن المجلس إلى القـاعة ، وصوت السيوف على إنسان ، فقلت لغلام لي أرمني : « أبصر مـن هذا المقتول » ، فمضى ثم عاد وقال : « مـا هـؤلاء مسـلمون ! هـذا مولاي أبو الامانة ، يعني الامير جبريل ، قد قتلوه ، وواحد قد شـق بطنه يجذب مصارينه » ، ثم خرج عباس ، وقـد أخـذ رأس الامير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفـور منه ، وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عبـاس ، فـأدخلوهما ، في خزانة في القصر وقتلوهما ، وفي القصر ألف سيف مجردة .

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي ، لما جرى فيه مـن البغي القبيح الذي يذكره الله تعالى وجميع الخلق .

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم أن عباسا لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بابه قد قفل من داخل ، وكان يتولى فتح المجلس وغلقه استاذ شيخ يقال له أمين الملك ، فاحتالوا في الباب حتـى فتحـوه ، ودخلوا فـوجدوا ذلك الاسـتاذ خلف البـاب ، وهـو ميت ، وفي يده المفتاح .

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس على جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ ، رحمه الله ، ما فعـل جفـت عليه قلوب الناس ، وأضمروا فيها العداوة والبغضاء ، وكاتب من في القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك ، رحمـه الله ، يستصرخون به . وحشـد ، وخـرج مـن ولايتـه( ٢٧ ) يريد القاهرة ، فأمر عباس فعمرت المراكب ، وحمل فيها الزاد والسـلاح والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسـير معـه ، وذلك يوم

الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين ، وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة ، وقال لي : « تقيم معه » .

فلما خرج من داره متوجها الى لقاء ابن رزيك خامر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والازقة : خيالتهم تقاتلنا في الطريق ، ورجالتهم يرموننا بالذشاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات ، ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل ، وعاد إلى داره وأمره ونهيه .

وأمر بإحراق البرقية ( ٢٨ ) لأنها مجمع دور الأجناد ، فتلطفت الأمر معه وقلت : « يامولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد وما لاتريد ، وبعلت( ٢٩ ) عن ان تطفئها » . ورددت رأيه عن ذلك .

وأخذت الأمان للامير المؤتمن بن أبي رمادة ، بعد أن أمر بتلافه ، واعتذرت عنه ، فصفح عن جرمه .

## ( أسامة يعود إلى دمشق )

ثم سكنت تلك الفتنة ، وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء ، وأنه لا مقام له بينهم ، وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام الى الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، يستنجد به ، والرسل بين من في القصور وبين ابن رزيك مترددة ، وكان بيني وبينه ، رحمه الله ، مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر ، فنفذ إلي رسولا يقول لي : « عباس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بيني وبينك ، فلا تخرج معه ، فهو بحاجته إليك في الشام يرغبك ويخرجك معه ، فالله الله لاتصحبه ، فأنت شريكي في كل خير أناله » . فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك ، أو توهمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزيك من المودة .

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الأفرنج ، فإنه لما توهم من أمري وأمر ابن رزيك ما توهمه ، أو بلغه ، أحضرني واستحلفني بالأيمان المغلظة التي لامخرج منها أنني أخرج معه وأصحبه ، ولم يقنعه ذلك حتى نفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمه أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره ، وقال لي : « أنا احمل كلفتهم عنك في الطريق ، واحملهم مع والدة ناصر الدين » .

واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجالة ، كعادتهم بمصر ، ومائتا بغل رحل ، وأربع مائة جمل تحمل اثقاله .

وكان كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الاول من السنة ، فحضرته وقد دخل عليه غلام يقال له عنبر الكبير ، وهو متولي أموره كبيرها وصغيرها ، فقال له : « يامولاي ، أي شيء مرجو من مسيرنا إلى

الشام ؟ خذ خـزائنك وأهلك وغلمـانك ومـن تبعـك وسر بنا إلى الاسكندرية ، نحشد من هناك ونجمع ، ونرجع إلى ابن رزيك ومـن معه ، فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك ، وإن عجـزنا عنه عدنا إلى الاسكندرية إلى بلد نحتمي فيه ، ويمتنع على عدونا » ، فنهـره وخطأ رأيه ، وكان الصواب معه .

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بـكرة ، فلمـا حضرت عنده قلت : « يامولاي ، إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتـى أعمـل شغل سفري ؟» قال : «عندنا رسل من دمشـق ، تسـيرهم وتمضي تعمل شغلك » .

وكان قبل ذلك أحضر قوما مـن الأمـراء واسـتحلفهم أنهـم لايخونونه ولا يخامرون عليه ، واحضر جماعة من مقدمي العرب من درماء ، وزريق ، وجذام ، وسنبس ، وطلحة ، وجعفـر ، ولواتـه ، واستحلفهم بالمصحف والطلاق ، على مثـل ذلك ، فمـا راعنا ، وأنا عنده بكرة الجمعة ، إلا والناس قد لبسوا السـلاح ، وزحفـوا إلينا ورؤوسهم الامراء الذين استحلفهم بـالأمس ، فـأمر بشـد دوابـه فشدت وأوقفت على باب داره ، فكانت بيننا وبين المصريين كالسـد لايصلون الينا لازدحام الدواب دوننا .

فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير الذي كان اشار عليه بذلك الرأي ، وهو زمامهم ، صاح عليهـم وشـتمهم ، وقـال : « روحـوا إلى بيوتكم » ، فسـيبوا الدواب ومضى الركابية والمكارية والجمـالون ، وبقيت الدواب مهملة . ووقع فيها النهب .

فقال لي عباس : « اخـرج أحضر الأتـراك ، وهـم عند بـاب النصر ، والكتاب يذفقون فيهم » ، فلما جئتهم واستدعيتهم ركبـوا كلهم ، وهم في ثمانمائة فارس ، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال ، وركب المماليك ، وهم أكثر من الاتراك ، وخرجوا أيضا من باب النصر ، ورجعت إليه عرفته ، ثم اشـتغلت بـاخراج أهلي

الذين كان حملهم إلى داره ، فاخرجتهم وأخرجت حرم عباس ، فلما خلت الطـريق ونهبـت تلك الدواب بـأجمعها وصـل المصريون الينا فاخرجونا ، ونحن في قلة ، وهم في خلق كثير .

فلما خرجنا من باب النصر وصلوا الى الأبواب أغلقـوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فاخذوا من قـاعة داري أربعين غرارة جمـالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا مـن اصطبلي ستة وثلاثين حصـانا وبغلة سروجية بسروجهـا وعدتهـا كاملة ، وخمسةوعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعي من كوم اشفين مائتي رأس بقر للتنائين وألف شية( ٣٠ ) وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين اسـتحلفهم عباس ، وقاتلونا من يوم الجمعـة ضـحى نهـار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلونا النهار كله ، فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فـارس ويدفعـون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر مـن خيلنا وخرج إليهم أخذوه .

وانقطعت يوما عن أصحابي وتحتي حصـان أبيض ، هـو أردأ خيلي ، شده الركابي ولايدري ما يجري ، وما معي من السلاح غير سيفي ، فحمل علي العرب فلم أجد ما ادفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « اثب عن الحصان واجذب سيفي ، أدفعهم » ، فجمعت نفسي لاثب ، فتتعتع الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي ودخـت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه ، فوقف علي منهم قوم ، وانا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفي مرمي بجهـازه ، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » وأنا لا أدري ما يقول ، ثم اخذوا حصاني وسيفي .

ورآني الاتراك فعادوا إلي ، ونفـذ لي ناصر الدين ابـن عبـاس

حصانا وسيفا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جـراحي ، فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا اردت ماء ترجلت شربـت بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي وعرضوا علي ستة عشر حمل روايا ، وما شـاء الله سـبحانه مـن القرب والسطائح .

وعجـزت عن حمـل أهلي ، فـرددتهم مـن بلبيس إلى عند الملك الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه الله ، فـأحسن إليهـم وأنزلهم في دار ، وأجرى لهم ما يحتاجونه ، ولما أراد العـرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا( ٣١ ) إذا عدنا .

وسرنا إلى يوم الأحـد ثـالث وعشرين ربيع الأول ، فصـبحنا الافرنج في جمعهم على المويلح( ٣٢ ) فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك واسروا ابنه ناصر الدين ، وأخذوا خـزانته وحـرمه ، وقتلوا مـن ظفروا به . وأخذوا أخي نجم الدين أبا عبـد الله محمـدا ، رحمـه الله ، أسيرا . وعادوا عنا ، ونحن قد تحصنا عنهم في الجبال .

فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد ، لعنهم الله ، في وادي موسى .

وطلعنا في طـرقات ضـيقة وعرة إلى أرض فسـيحة ، ورجـال وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرد قتلوه .

وتلك الناحية لاتخلو من بعض بني ربيعـة الأمـراء الطـائيين ، فسألت : « من ها هنا من الأمراء بني ربيعة ؟» قالوا : « منصـور ابن دغفل» ، وهو صديقي ، فدفعت لواحـد دينارين وقلت : « امض إلى منصور قل له,صديقك ابن مذقذ يسلم عليك ويقـول لك صـل إليه بكرة » ، وبتنا في مبيت سوء من خوفهم. فلما اضاء الصبح أخذوا

عدتهم ووقفوا على العين وقالوا:« ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش » وتلك العين تكفي ربيعة ومضر ، وكم في أرضهم مثلها ، وإنما قصدهم أن يذشوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن دغفل وصل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا . وقال : « اركب » . فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر ، فنزلنا إلى الوطا سالمين ، وما كدنا نسلم ، فجمعت للامير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه ، وعاد .

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الأفرنج وبني فهيد ، يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل ، وحسن دفاعه .

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الوقعة أن الظافر كان أرسل إلى ابن عباس رهوارا( ٣٣ ) صغيرا مليحا افرنجيا ، وكنت قد خرجت إلى قرية لي ، وابني أبو الفوارس مرهف عند ابن عباس ، فقال : « كنا نريد لهذا الرهوار سرجا مليحا من السروج الغزية » ، فقال له ابني : « قد وجدته ، يامولاي ، وهو فوق الغرض » . قال : « أين هو ؟ » قال : « في دار خادمك والدي ، له سرج غزي مليح » ، قال : « أنفذ أحضره » ، فأرسل رسولا إلى داري أخذ السرج ، فأعجبه ، وشد به على الرهوار ، وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو منبت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالا .

ووصلت أنا من الاقطاع ، فقال لي ناصر الدين : « ادللنا عليك وأخذنا هذا السرج من دارك » ، فقلت : « يامولاي ، ما أسعدني بخدمتك !» فلما خرج علينا الافرنج بالمويلح كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم ، فلما وقع الأفرنج بقيت الخيل سائبة ، فنزل الغلمان عن الجمال واعترضوا الخيل

وأخذوا منها ماركبوه ، فكان على بعض الخيل التي أخذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس .

وكان حسام الملك ابن عم عباس ، واخو عباس ابن العادل قد سلما فيمن سلم منا ، وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقال وأنا أسمع : « كل ما كان لهذا المسكين ـ يعني ابن عباس ـ نهب ، فمنه ما نهبه الأفرنج ، ومنه ما نهبه أصحابه » ، قلت : « لعلك تعني السرج الذهب » ؟ قال : « نعم» .

فامرت باحضاره وقلت : « اقرأ ما عليه ، اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي ؟ ، ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ غيري ؟ » ، وكان اسمي مكتوبا على دائر السرج بالسواد ، ووسطه منبت ، فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت .

ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كان اتعظ بما جرى قبله للافضل رضوان بن الولخشي ، رحمه الله ، كان وزيرا فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قاموا على عباس ، فخرج من مصر يريد الشام ، ونهبت داره وحرمه ، حتى أن رجلا يعرف بالقائد مقبل ، رأى مع السودان جارية فاشتراها منهم وبعثها إلى داره ، وكانت له امراة صالحة ، فاطلعت الجارية إلى حجرة في علو الدار فسمعتها تقول : « لعل الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا » ، فسألتها : « من أنت ؟» فقالت : « أنا قطر الندى بنت رضوان » ، فنفذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته ، فعرفته حال البنت ، فكتب إلى الحافظ مطالعة ، فعرفه بذلك ، فنفذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر .

ثم إن رضوان وصل إلى صلخد ، وفيها أمين الدولة كمشتكين الأتابكي( ٣٤ ) ، رحمه الله ، فاكرمه وأنزله وخدمه ، وملك الأمراء أتابك زنكي بن آقسنقر ، رحمه الله ، على بعلبك يحاصرها ،

فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه ، وكان رجلا كاملا كريما شجاعا كاتبا عارفا ، وللجند إليه ميل عظيم لكرمه ، فقال لي الأمير معين الدين ، رضي الله عنه : « هذا الرجل إن انضاف إلى أتابك دخل علينا منه ضرر كثير » ، قلت : « فأي شيء ترى ؟» قال : « تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتابك ، ويكون وصوله إلى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك » ، فسرت إليه الى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحد وتحدثت معهما ، فقال لي الأفضل رضوان : « فرط الأمر مني ورهنت قولي عند هذا السلطان بوصولي إليه ، ولزمني الوفاء بقولي » ، قلت : « أقدمك الله على خير ! وأنا أعود إلى صاحبي ، فإنه ما يستغني عني ، بعد أن أخرج إليك بما في نفسي » ، قال : « قل » ، قلت : « إذا وصلت إلى أتابك ، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟ » قال : « لا » . قلت : « فإذا هو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك الى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوي عسكره ؟» قال : « لا » . قلت : « ذلك الوقت يقول لك : نسير إلى حلب نجدد آلة سفرنا » ، فإذا وصلتم إلى حلب قال : نمضي إلى الفرات نجمع التركمان ، فإذا نزلتم على الفرات قال : « إن لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » ، فإذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال : « هذا عزيز مصر في خدمتي » ، وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر عليها ، وتذكر حينئذ كلامي ، وتقول « نصحني ما قبلت » ، فأطرق مفكرا لايدري ما يقول ، ثم التفت إلي وقال : « ماذا أعمل ، وأنت تريد ترجع » ؟ قلت : «إن كان في مقامي مصلحة أقمت » ؟ قال : « نعم » ، فاقمت .

وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق ، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع ، ويكون له دار العقيقي( ٣٥ ) ويخرج لأصحابه ديوان ، وكتب لي خطه بذلك ، وكان كاتبا حسنا ، وقال : « إن شئت سرت معك » ؟ قلت : « لا ، أنا

اسير ومعي الحمام من هاهنا ، فإذا وصلت واخليت الدار ورتبت الأمر ، طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت القاك في نصف الطريق ، وأدخل بين يديك » ، فتقرر ذلك وودعته وسرت .

وكان أمين الدولة يشتهي مصيره الى مصر لما قد وعده به وأطمعه فيه ، فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له ، فلما دخل حدود مصر غدر به الذين كانوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله ( ٣٦ )، والتجأ هو إلى حي من أحياء العرب ، وراسل الحافظ وطلب منه الأمان ، وعاد إلى مصر ، فساعة وصوله إلى مصر أمر به الحافظ فحبس هو وولده .

واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر ، فنقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعا وخرج ليلة الخميس ، وله من الأمراء نسيب قد عرف أمره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواته ، ومشوا الى النيل عدوا إلى الجيزة ، واختبطت القاهرة لهروبه ، واصبح في منظرة في الجيزة والناس يجتمعون إليه ، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله ، ثم أصبح بكرة الجمعة عدى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيماز صاحب الباب مدر عين للقاء ، فلما وصلهم هزمهم ودخل القاهرة .

وكنت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر ، قبل دخوله البلد ، فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد ، فرجعت نزلت في داري ، ونزل رضوان في الجامع الأقمر ، واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة ، وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا ، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا . فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح ، فراه رجل من صبيان الخاص واقفا على باب الجامع فقال : « يامولاي ، ما تركب حصاني ؟» قال : « بلى » ، فجاء إليه يركض وسيفه في يده ، فأومأ كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف ، فوقع ،

ووصله السودان قتلوه ، وتقاسم أهـل مصر لحمـه يأكلونه ليكونوا شجعانا ، فقد كان فيه معتبر ، وواعظ لولا نفاذ المشيئة .

وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشـاميين جـراح كثيرة ، فجاءني أخوه وقال : « أخي تالف ، قـد وقـع فيه كذا وكذا جـرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور مايفيق » . قلت : « ارجع أفصده » ، قال : « قد خرج منه عشرون رطل دم » ، قلت : « أرجـع أفصـده فانا اخبر منك بالجراح ، وليس له دواء غير الفصاد » ، فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر ، قال : « أنا فصدته ، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهـب عنه البـؤس » ، قلت : « الحمـد لله ! ولولا أني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » .

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمـه الله ، وكاتـب الملك الصالح في تسـيير أهلي وأولادي الذين تخلفـوا بمصر ، وكان محسنا إليهم ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخافـ عليهم من الأفرنج ، وكتب إلي يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعـرف مـا بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتـابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بمـا تتقـوى بـه على محـاربة الحبشة ، فأسوان ثغر مـن ثغـور المسـلمين ، وأسـير إليك أهلك وأولادك » .

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقـال : « يافـلان ، مـا صدقت متى تخلص من مصر وفتنها ، تعود إليها ! العمر أقصر مـن ذلك . أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان مـن ملك الافـرنج وأسـير مـن يحضرهم » . فأنفذ رحمه الله ، أخذ أمـان الملك وصـليبه في البـر والبحر .

وسيرت الأمان مع غلام لي ، وكتاب الملك العـادل وكتـابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصى بهم ، واقلعوا مـن

دمياط في بطسه من بطس الأفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك ، لارحمه الله ، نفذ قوما في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس ، وأصحابي يرونهم ، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه .

فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه وقال له : « يامولاي الملك ، ما هذا أمانك ؟» قال : « بلى ، ولكن هذا رسم المسلمين ، اذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » . قال : « فتسبينا ؟» قال : « لا » ، وأنزلهم ، لعنة الله ، في دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم ، وقد كان في المركب حلي أودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار ، فاخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال « توصلوا بهذه إلى بلادكم » ـ وكانوا رجالا ونساء في خمسين نسمة .

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود( ٣٧ ) رعبان وكيسون ، فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي ، وأحزننا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف( ٣٨ ) مجلد من الكتب الفاخرة . فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت .

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال ، والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجحفت بهلاك المال .

## حروب مع الكفار والمسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين مالا أحصيها ، وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره ، وما النسيان بمستنكر لمن

طال عليه ممر الاعوام ، وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام .

فمن ذلك ما شاهدته من أذفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب ، والمواكب واقفة والطراد بين المتسرعة فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير ، وهو يبكي ، فقلت له : « ما لك ياأبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ؟» قال « طعنني سر هنك ابن أبي منصور » ، قلت : « وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون ؟» قال : « ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك ! ؟ والله إن الموت أسهل علي من أن يطعنني ، لكنه استغفلني واغتالني » ، فجعلت أسكنه وأهون الأمر عليه ، فرد رأس فرسه راجعا فقلت : « إلى أين ياأبا محمود ؟ » قال : « إلى سرهنك ، والله لأطعننه أو لأموتن دونه » .

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي ، ثم عاد وهو يضحك فقلت : « ما عملت ؟» فقال : « طعنته والله ، ولو لم أطعنه لفاظت روحي » . فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد( ٣٩ ) ، فكأن هذا الشعر عنى سرهنك وجمعة بقوله :

لله درك ما تظن بثائـــــر
حران ليس عن التراث براقد
أيقظته ورقدت عنه ولم ينم
حنقا عليك وكيف نوم الجاهد
إن تمكن الايام منك وعلهـــا
يوما يكل لك بالصواع الزائد

وقد كان سرهنك هذا من الفرسان المذكورين مقدما في الاكراد ،

الا انه كان شابا وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة .

وذكرت بفعلة سرهنك ما فعله مالك بن الحارث الأشتر ، رحمه الله ، بأبي مسيكة الايادي .

وذلك أنه لما أرتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، وعزم الله سبحانه له على قتالهم ، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين ، فكان أبو مسيكة الا يادي مع بني حنيفة وكانوا اشد العرب شوكة ، وكان مالك بين الصفين وصاح : « ياأبا مسيكة !» فبرز له ، فقال : « ويحك ! ياأبا مسيكة ، بعد الاسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر ؟» فقال : « إياك عني يامالك ! إنهم يحرمون الخمر ، ولاصبر عنها » ، قال : « فهل لك في المبارزة ؟» قال : « نعم » . فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف .

فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبتلك الضربة سمي الاشتر .

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلى رحله ، واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبكون ، فقال لأحدهم : « ادخل يدك في فمي » ، فادخل أصبعه في فمه ، فعضها مالك ، فالتوى الرجل من الوجع ، فقال مالك : « لا بأس على صاحبكم ، يقال : إذا سلمت الاضراس سلم الرأس ، احشوها - يعني الضربة - سويقا وشدوها بعمامة » . فلما حشوها وشدوها قال : « هاتوا فرسي » ، قالوا : « إلى أين ؟» قال : « إلى أبي مسيكة » .

فبرز بين الصفين وصاح : « ياأبا مسيكة !» فخرج إليه مثل السهم ، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشقها إلى سرجه فقتله ، ورجع مالك إلى رحله فبقي أربعين يوما لايستطيع الحراك ، ثم أبل وعوفي من جرحه ذلك( ٤٠ )

ومن ذلك ما شاهدته من سلامة المطعون ، وقد ظن أنه قد هلك ، أننا التقينا بوادر خيل شهاب الدين محمود بن قراجا وقد جاء إلى أرضنا وكمن لنا كمينا ، فلما تواقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا ، فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بن سلام نميري ، وقال : « أصحابنا قد انتشروا ، إن حملوا عليهم أهلكوهم » ، قلت : « أحبس عني أخوتي وبني عمي حتى أردهم » ، فقال : « ياأمراء ، دعوا هذا يرد الناس ولاتتبعوه ، وإلا حملوا عليهم قلعوهم » ، قالوا : « يمضي » ، فخرجت أناقل ( ٤١ ) حصاني حتى رددتهم ، وكانوا ممسكين عنهم ليستجروهم ويتمكنوا منهم .

فلما رأوني قد رددتهم حملوا علينا ، وخرج كمينهم وأنا على فسحة من أصحابي ، فرجعت مباريهم أريد أحمي أعقاب أصحابي ، فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، قد حدب( ٤٢ ) من وراء أصحابي من قبلي الطريق وأنا في شماليه ، فجئناهم ، فتسرع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام ، رجل عربي فارس مشهور ، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا ، فسبقني إليه ابن عمي ، فطعنه ، فوقع هو وحصانه وفقع الرمح فقعة سمعتها أنا وأولئك .

وكان الوالد ، رحمه الله ، أرسل رسولا إلى شهاب الدين ، فأخذه معه لما جاء لقتالنا ، فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سأل فيه ، ورجع إلى حماة ، فسألت الرسول : « هل مات فارس بن زمام ؟» قال : « لا ، والله ، ولافيه جرح » . قال : « ليث الدولة طعنه ، وأنا أراه ، فرماه ورمى حصانه ، وسمعت قعقعة كسر الرمح ، لما غشيه ليث الدولة من يساره مال على جانبه الأيمن وفي يده قنطارية( ٤٣ ) . فوقع حصانه على قنطاريته وهي على وهدة ، فانكسرت ، وتذنب ليث الدولة برمحه ، فوقع من يده ، والذي سمعت قعقعة قنطارية فارس بن زمام ، ورمح ليث الدولة أحضروه بين يدي شهاب الدين ، وأنا حاضر ، وهو صحيح ما فيه كسر ، ولا في فارس جرح » . فعجبت

من سلامته ، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل كما قال عنترة :

الخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جمعهم وكمينهم ما نالوا منه ماأرادوه :
والبيت المقدم من أبيات لعنترة بن شداد يقول فيها :

إني أمرؤ من خير عبس منصبا
شطري وأحمي سائري بالمنصل
واذا الكتيبة أحجمت فتلاحظت
ألفيت خيرا من معم مخول
إن المنية لو تمثل مثلت
مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل
ودعوا نزال فكنت أول نازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل( ٤٤ )

ومثل ذلك ما جرى لي على افامية . فإن نجم الدين بن إيلغازي ابن أرتق ، رحمه الله ، كسر الأفرنج على البلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة( ٤٥ ) وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه ، فسار إليه عمي عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدي ، رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أفامية بمن معي بشيزر من الناس ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية ، وكان قد هدف من العرب الينا خلق كثير .

فلما سار عمي نادى المنادي بعد يوميات من مسيره ، وسرت في نفر قليل ، ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن على يقين أن أفامية ما

فيها خيالة ، ومعي خلق عظيم من النهابة والبادية ، فلما صرنا على وادي أبو الميمون ، والنهابة والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الأفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا .

فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتا .

ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا ، وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم اجتن عنهم .

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب أنا خائف منه لايكون جاذبا لي ليعود علي ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه ، فعلمت أنه قد أعيا ، فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا اظن أني قتلته . فجمعت أصحابي وهم سالمون .

وكان معي مملوك صغير يجر فرسا لي دهماء مجنوبة ، وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجرة فطارت به الى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة ، سألت عن الغلام فقالوا : « راح »، فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ، رحمه الله ، فدعوت رجلا من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدي بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال : « أي شيء لقيتم ؟ » قال : « يامولاي ، خرج علينا الأفرنج في ألف ، وما أظن أحدا يسلم إلا مولاي » ، قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟» قال : « رأيته قد لبس وركب الخضراء ، وفيما هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ، ووصلت بعده ، فاستخبرني ، رحمه الله ، فقلت : « يامولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الأفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت ، فرجعت إلى الأفرنج لأقتل أو أحمي ذلك العالم » ، فقال رحمه الله : متمثلا :

يفر جبان القوم عن أم رأسه
ويحمي شجاع القوم من لايلازمه

ووصل عمي ، رحمه الله ، من عند نجم الدين إيلغازي ، رحمه الله بعد أيام ، فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه ، فجئته فاذا عنده رجل من الافرنج ، فقال:« هذا الفارس قد جاء من افامية يريد أن يبصر الفارس الذي طعن فليب الفارس ، فإن الافرنج تعجبوا من تلك الطعنة وانها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس » ، قلت : « كيف سلم ؟» قال ذلك الفارس الافرنجي : « جاءت الطعنة في جلدة خاصرته » ، قلت : « نعم الأجل حصن حصين » ، وما ظننته يسلم من تلك الطعنة ، قلت : يجب على من وصل إلى الطعن أن يشد يده وذراعه على الرمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمله في الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح أو مدها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية .

وشاهدت فارسا من رجالنا يقال له عدي بن تليل القشيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والافرنج وهو معرى ما عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الافرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه ، فرجع في صدره وما نظنه يصل منزله حيا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ،

لكنه لبث سنة اذا نام على ظهره لايقدر يجلس إن لم يجلسه انسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان .

قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت ، وهو حي لايموت بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير (٤٦) .

كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه ، كانت فيه ابرة ، دخلت في راحته فمات منها ، وبالله لقد كان يئن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته ، يموت من إبرة ، وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية تخرج من جنبه لايصيبه شيء .

نزل علينا صاحب أنطاكية ، لعنه الله ، بفارسه وراجله وخيامه في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا ، فجاؤوا نزلوا منزلا كانوا ينزلونه ، وهجعوا في خيامهم ، فرجعنا نحن إلى آخر النهار ، ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلونا ، فما ركبوا من خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت وهي بالقرب من الافرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في عشرين فارسا معدين ، وقفنا بينه وبين الفرنج ، إلى أن حمل الغلة ومضى ، فعدلت أنا ورجل من مولدينا يقال له حسام الدولة مسافر ، رحمه الله ، إلى كرم رأينا فيه شخوصا ، وهم على شط النهر ، فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها ، والشمس على مغيبها ، فاذا شيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة وكان ، رحمه الله ، رجلا جيدا كثير المزاح : « ياشيخ ، أي شيء تعمل هاهنا ؟» قال : « انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار » ، قال : « ياشيخ ، بأسنانك تقطع عن خيلهم ؟» قال :

« لا ، بهذه السكين » . وجذب سكينا من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل ، فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون من الافرنج ، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقد جمد ، قلت : « يهنئك السلامة ، أي شيء عملت ؟ » قال : « أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا ، ولحقني راجل ، وأنا خارج من عسكرهم ، طعنني نفذ القنطارية في فخذي ، وسبقت بالحصان والترس والرمح » ـ وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها في سواه ، وهذا الرجل يقال له الزمر كل من شياطين اللصوص حدثني عنه الامير معين الدين ، رحمه الله ، قال : «أغرت زمان مقامي بحمص على شيزر ، وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلد حماه ، وأنا عدو لصاحب حماه ، قال : فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكروه فقبضوه وجاؤوني به ، فقلت : ياشيخ ايش انت ؟ قال : « يامولاي ، أنا رجل صعلوك شيخ زمن ، وأخرج يده وهي زمنة ، قد أخذ لي العسكر عنزين جئت خلفهم لعل ان يتصدقوا علي بهما ، فقلت لقوم من الجندارية : « احفظوه إلى غد ، فاجلسوه بينهم وجلسوا على أكمام فروة عليه . فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار ، فعدوا في اثره ، سبقهم ومضى ، قال : وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جندار يقال له شومان قد كان يسكن بشيزر ، فحدثته حديث الشيخ ، قال :« واحسرتي عليه ! لو كنت لحقته كنت شربت دمه ، هذا الزمر كل » ، قلت : « فأي شيء بينك وبينه ؟» قال : نزل عسكر الفرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصانا منهم ، فلما أظلم الظلام مشيت الى طوالة خيل بين يدي وإذا هذا جالس بين يدي ، فقال لي :إلى أين ؟ قلت : آخذ حصانا من هذه الطوالة ، قال : وأنا من العشاء انظرها حتى تأخذ أنت الحصان ! قلت : لاتهذ ، قال : لا تغتر ، والله ، ماأدعك تأخذ شيئا ، فما التفت إلى قوله ويممت إلى الطوالة ، فقام وصاح بأعلى صوته : وافقري ، واخيبة تعبي وسهري ، وصيح حتى خرج علي الافرنج ، فاما هو فطار ،

فطردوني حتى رميت نفسي في النهر ، وما ظننت أني اسلم منهم . ولو لحقته كنت شربت دمه ، وهو لص عظيم ، وما تبع العسكر الا يسرق منه » .

فكان هذا الرجل يقول من يراه « ما في هذا يسرق رغيف خبز من بيته » .

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلا كان بخدمتي يقال له علي ابن الدودويه من أهل بتكين ، نزل يوما الافرنج ، لعنهم الله ، على كفرطاب (٤٧) وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، فخرج هذا علي بن الدودوية دار بهم وأخذ حصانا ركبه وخرج به من العسكر يركض ، وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد أن بعضهم قد ركب في طلبه ، وهو مجد في الركض والحس خلفه حتى ركض قدر فرسخين والحس معه . فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام ، واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته . فوقف حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماة بالحصان والبغلة ، وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها .

كنت يوما عند أتابك وهو يحاصر رفنية (٤٨) وقد استدعاني فقال لي : « يافلان ، أي شيء من حصانك الذي خبيته ؟» وكان قد بلغه خبر الحصان ، قلت « لا ، والله يامولاي ، ما لي حصان مخبى ، حصني كلها في العسكر » ، قال : فالحصان الافرنجي ؟ » قلت : « حاضر » ، قال : « أذفذ احضره » ، فاذفذت أحضرته وقلت للغلام : « امض به الى الاصطبل » ، قال أتابك : « اتركه الساعة عندك » ، ثم اصبح سبق ، فسبق ، ورده الى اصطبلي . وعاد استدعاه من البلد وسبق به فسبق ، فحملته الى اصطبله .

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة ، كان عندنا رجل من الجند يقال له رافع الكلابي ، وهو فارس مشهور ، اقتتلنا نحن وبنو قراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم ، وحشدوا وباسطناهم

على فسحة من البلد ، ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضا ، وهذا رافع في من يحمي الأعقاب ، وهو لابس كزاغند( ٤٩ ) وعلى رأسه خوذة بلا لثام ، فالتفت لعله يرى فيهم فرصة فينحرف عليهم ، فضربه سهم كسماء( ٥٠ ) في حلقه ذبحه ، ووقع مكانه ميتا .

وكذلك شاهدت شهاب الدين محمود بن قراجا ، وقد انصلح ما بيننا وبينه ، وقد نفذ إلى عمي يقول له : « تأمر أسامة يلقاني هو وفارس واحد إلى كفراع ( ٥١ ) لنمضي نبصر موضعا نكمن فيه لافامية ونقاتلها » ، فأمرني عمي بذلك : فركبت ولقيته وأبصرنا المواضع .

ثم اجتمع عسكرنا وعسكره ، وأنا على عسكر شيزر وهو في عسكره ، وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها ، وهو مكان لاتتصرف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصول الحيطان الخراب ، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان ، فقال لي رجل من جندنا : « تريد تكسرهم ؟» قلت : « نعم » ، قال : « اقصد بنا باب الحصن » ، فأراد ان يردني عن ذلك ، فأبيت وقصدت الباب .

فساعة مارأنا الفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فداسونا وجازوا ، وترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم الى الحصن وصفوا عوالي قنطارياتهم في الباب ، وأنا وصاحب لي من مولدي أبي ، رحمه الله ، اسمه رافع بن سوتكين وقوف تحت السور مقابل الباب وعلينا شيء كثير من الحجارة والذشاب ، وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم على جوبة الاكراد( ٥٢ )، فقد طعن صاحب لنا يقال له حارثة الذميري نسيب جمعة في صدر فرسه طعنة معترضة ، ونزلت القنطارية في الفرس فتخبطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعها ، فبقيت مسبلة على أعضادها .

وشهاب الدين بمعزل عن القتال ، فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءني رسوله يقول : « لاتزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد ، فأنا قد جرحت ، وكأني أحس الجرح في قلبي ، وأنا راجع فاحفظ انت الناس » ، ومضى ورجعت أنا بالناس نزلت على برج خريبة ، وكان الافرنج لهم عليه ديد بان يكشفنا إذا أردنا الغارة على أفامية .

ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والدي يريد يحل جرحه ويداويه ، وعمي قد منعه وقال : « والله ، ما تحل جرحك إلا في دارك » ، قال : « أنا في دار والدي » - يعني الوالد ، رحمه الله - قال: « إذن إذا وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك » .

فركب المغرب وسار الى حماة . فاقام الغد وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات ، وما كان به إلا فراغ الأجل .( ٥٣ )

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الافرنج ، خذلهم الله ، فارسا من أجنادنا يقال له تايه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة اضلاع من جانبه اليسار ، وثلاثة أضلاع من جانبه الايمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ، ومات لساعته .

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مياح فارسا من الافرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله ، ثم إن الافرنج غاروا علينا بعد أيام ومياح قد تزوج وخرج ، وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس ، قد تشهر به ، فطعنه فارس من الافرنج فقتله ، رحمه الله . « ياقرب مأتمه من العرس ! »

فذكرت به الخبر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقد أنشد قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا
كأن يدي بالسيف مخراق لاعب( ٥٤ )

فقال النبي صلى الله عليه للحاضرين من الانصار ، رضي الله عنهم :« هل حضر أحد منكم يوم الحديقة ؟ »( ٥٥ ) فقال رجل منهم : « أنا حضرته ، يارسول الله ، صلى الله عليك وسلم ، وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء ، فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه »

ومن عجائب الطعن ان رجلا من الاكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي ، رحمه الله ، إلى أصبهان إلى دركاه السلطان ملكشاه فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد ، فقال له عمي عز الدين ، رحمه الله : « ياحمدات ، قد كبرت وضعفت ، ولك علينا حق وخدمة ، فلو لزمت مسجدك ـ وكان له مسجد على باب داره ـ وأثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجدك » ، قال : « أفعل ياأمير » ، فأجري له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال : « ياأمير ، والله ، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت ، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي » قال : « الأمر لك » ، وأمر برد ديوانه عليه كما كان .

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني (٥٦) صاحب طرابلس ، ففزع الناس إليهم ، وحمدات في جملة الروع ، فوقف على رفعة من الارض مستقبل القبلة ، فحمل عليه فارس من الافرنج من غربية ، فصاح إليه بعض أصحابنا : « ياحمدات !» ، فالتفت رأى الفارس قاصده ، فرد رأس فرسه شمالا ومسك رمحه بيده وسدده الى صدر الافرنجي ، فطعنه نفذ الرمح منه ، فرجع الافرنجي متعلقا برقبة حصانه في آخر رمقه ، فلما انقضى القتال قال

حمدات لعمي : « ياأمير،لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هـذه الطعنة ؟»

فاذكرني قول الفند الزماني( ٥٧ )

أيا طعنة ما شيـخ
كبير يفن بالـــي
تفتيت بها إذ كـــ
ـره الشكة أمثالي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما جميعا

وقد كان جرى لنا مثل ذلك : وهو أن فلاحا من العلاة جاء يركض إلى أبي وعمي ، رحمهما الله ، قال :« شاهدت سرية أفرنج تائهين قد جاؤوا من البرية ، لو خرجتم إليهم أخذتموهم » ، فـركب أبـي وعمامي وخرجوا بالعسكر الى السرية التـائهة واذا بـه السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي ، وهـم رمـاة الافرنج ، فلما راوا أصحابنا ركبوا خيلهم واطلقوا على اصـحابنا هزموهم ، وتموا يطردونهم ، فأحرف عليهم مملوك لوالدي يقـال له ياقوت الطويل ، وابي وعمي ، رحمهما الله ، يريانه ، فطعن فارسا منهم إلى جانبه فارس آخر ، وهمـا يتبعـان اصـحابنا ، فـرمى الفارسين والفرسين .

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لايزال قد فعل فعلة يجب تأديبه عليها ، فكلما هم والدي به وبتأديبه يقول عمي : « ياأخـي ، بحياتك هب لي ذنبـه ولاتنس له تلك الطعنة » ، فيصـفح عنه لكلام أخيه .

وكان حمدات الذي تقدم ذكره ظريف الحديث . حـدثني والدي ،

رحمه الله ، قال : « قلت لحمدات ونحن سائرون في طريق اصبهان سحرا ، « أمير حمدات ، أكلت اليوم شيئا ؟ ، قال : نعم ياأمير ، اكلت ثريدة .

قلت : « ركبنا في الليل وما نزلنا ولا أوقدنا نارا ، من أين لك الثريدة ؟ قال : « يا أمير عملتها في فهمي ، اخلط في فمي الخبز واشرب عليه الماء يصير كالثريدة » .

وكان الوالد ، رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه ، وحضر يوما القتال وهو لابس وعليه خوذة اسلامية بأذف فزرقه رجل بحربة - وكان معظم قتالهم مع العرب ذلك الزمان - فوقعت الحربة في أذف الخوذة فانطوى وأدمى أذفه ولم يؤذه ، ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أذف الخوذة كان أهلكه .

وضرب مرة أخرى بنشابة في ساقه ، وفي خفه دشني( ٥٨ ) ، فوقع السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه ، هذا لحسن دفاع الله تعالى . وشهد ، رحمه الله ، الحرب يوم الاحد تاسع وعشرين شوال سنة سبع وتسعين واربعمائة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب الاشهبي صاحب أفامية بأرض كفرطاب ، فلبس جوشنه ، وعجل الغلام عن طرح كلاب الجوشن من الجانب ، فجاءه خشت (٥٩) فضربه في ذلك الموضع الذي أخل الغلام بستره فوق بزه الايسر خرج الخشت من فوق بزه الايمن ، فكانت اسباب السلامة لما جرت بها المشيئة من العجب ، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب .

فطعن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارسا واحرف حصانه وثنى يده برمحه وجذبه من المطعون ، فحدثني قال : « حسست شيئا قد لدغ زندي ، فظننته من حرارة صفائح الجوشن ، إلا أن رمحي سقط من يدي ، فرددتها فاذا قد طعنت في يدي وقد استرخت لقطع شيء من الاعصاب » ، فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي

يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف ، فقال : « يازيد ، اخرج هذه الحصاة من الجرح » ، فما كلمه الجرائحي . فعاد فقال : « يازيد ما تبصر هذه الحصاة ؟ ما تزيلها من الجرح !» فلما اضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » ، وكان بالحقيقة أبيض كانه حصاة من حصا الفرات .

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه ، رحمه الله ، يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمس مائة

وكان يكتب خطا مليحا ، فما غيرت تلك الطعنة من خطه ، وكان لاينسخ سوى القرآن ، فسألته يوما فقلت : « يامولاي كم كتبت ختمه ؟» قال « الساعة تعلمون » ، فلما حضرته الوفاة قال : « في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها - يعني المساطر - تحت خدي في القبر » ، فعددناها فكانت ثلاثا وأربعين مسطرة .

فكان كتب بعدتها ختمات : منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب ، وكتب فيها علوم القرآن قراءآته وغريبه وعربيته وناسخه ومنسوخه وتفسيره ، وسبب نزوله وفقهه ، بالحبر والحمرة والزرقة ، وترجمه بالتفسير الكبير ، وكتب ختمه أخرى بالذهب مجردة من التفسير ، وباقي الختمات بالحبر مذهبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الاجزاء ، وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لأستدعي له الرحمة ممن وقف عليه .

أعود الى ما تقدم :

وفي ذلك اليوم أصاب غلاما كان لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر ، رحمه الله ، يقال له موفق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، واتفق ان

عمي أرسله رسولا إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش إلى حلب ، فلما حضر بين يديه قال لغلمانه : « مثل هـذا يكون الغلمـان وأولاد الحلال في حق مواليهم » ، وقال لشمعون : « حـدثهم حـديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاك » ، فقال : « يامولانا ، بالامس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه ، فدخلت بينه وبين مولاي لافديه بنفسي فطعنني قـطع مـن اضـلاعي ضـلعين وهي ـ ونعمتك ـ عندي في قمطرة » فقال له الملك رضوان « والله ما أعطيك الجواب حتى تنفذ تحضر القمطرة والاضلاع » .

فأقام عنده وأرسل من أحضر القمـطرة وفيهـا عظمـان مـن أضلاعه ، فعجب رضوان من ذلك ، وقال لأصحابه : « كذا اعملوا في خدمتي »

فاما الأمر الذي سأله عنه أيام والدة تاج الدولة فإن جدي سـديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، سـير ولده عز الدولة نصرا ، رحمه الله ، الى خـدمة تـاج الدولة ، وهـو معسكر بظاهر حلب ، فقبض عليه واعتقله ووكل به مـن يحفـظه ، وكان لايدخل إليه سـوى مملوكه هـذا شـمعون والموكلون حـول الخيمة ، فكتب عمي إلى أبيه ، رحمهما الله ، يقول : « تنفـذ لي في الليلة الفلانية ـ وعينها ـ قوما من أصـحابه ـ ذكرهـم ـ وخيلا اركبها إلى الموضع الفلاني » ، فلما كانت تلك الليلة دخـل شـمعون خلع ثيابه فلبسها مولاه وخرج على الموكلين في الليل ، فما انكروه ، ومضى إلى أصحابه وركب وسار ، ونام شمعون في فراشه .

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان ، رحمه الله ، من الزهاد القائمين ليلهـم يتلون كتـاب الله تعـالى ، فلمـا أصبحوا ولم يروا شمعون دخـل كعـادته دخلوا الخيمـة فـوجدوا شمعون وعز الدولة قـد راح ، فـأنهو ذلك إلى تاج الدولة ، فـأمر بإحضـاره ، فلمـا حضر بين يديه قـال : « كيف عملت ؟» قـال :

« أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح ، ونمت أنا في فراشه » ، قال : « وما خشيت أن أضرب رقبتك ؟ » قال : « يامولاي ، إذا ضربت رقبتي وسلم مولاي وعاد إلى بيته فانا السعيد بذلك . ومااشتراني ورباني إلا لأفديه بنفسي » .

فقال تاج الدولة ، رحمه الله ، لحاجبه : « سلم الى هذا الغلام خيل مولاه » ودوابه وخيامه وجميع بركه ، وسيره يتبع صاحبه « وما انكر عليه وما احنقه ما فعل في خدمة مولاه ، فهذا الذي قال له رضوان : « حدث اصحابي ما عمله أيام والدي مع مولاك » .

أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب

وجرح عمي عز الدولة ، رحمه الله ، في ذلك اليوم عدة جراح ، منها : طعنة طعنها في جفن عينه السفلاني من ناحية المآق ، ونشب الرمح في المآق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقا بجلده من مؤخر العين ، والعين تلعب لاتستقر ، وإنما الجفون التي تمسك العين ، فخاطها الجرائحي وداواها فعادت كحالها الأولة لاتعرف العين المطعونة من الأخرى

وكانا ، رحمهما الله ، من اشجع قومهما . ولقد شهدتهما يوما وقد خرجا الى الصيد بالبزاة نحو تل ملح( ٦٠ ) وهناك طير ماء كثير ، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه ، فرجعنا وكان الوالد (أبل ) من أثر مرض ، فاما عمي فخف بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الافرنج ، وهم يرونه ، وأما الوالد فسار والحصان يخب به ، وأنا معه صبي وفي يده سفرجلة يمتص منها ، فلما دنونا من الافرنج قال لي : « امض أنت ادخل من السكر » وعبر هو من ناحية الافرنج .

ومرة اخرى شاهدته وقد اغارت علينا خيل محمود بن قراجا ،

ونحن على فسحة من البلد وخيل محمود أقرب إليه منا ، وأنا قد حضرت القتال ومارست الحرب ، فلبست كزاغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي ، وهو ، رحمه الله ، على بغلة ، فقلت : « يامولاي ما تركب حصانك !» قال : « بلى » وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفي عليه ألح في ركوبه حصانه ، إلى أن وصلنا إلى البلد ، وهو على بغلته ، فلما عاد أولئك وأمنا قلت « يامولاي ، ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لاتركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع !» قال : « ياولدي ، في طالعي أنني لاأرتاع » .

وكان ، رحمه الله ، له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن ، وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبي وامتنع ، فيقول : « فاعرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب » ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصبحنا وقت صلاة الصبح رأينا سربة من الافرنج ، نحوا من عشرة فوارس ، جاؤوا إلى باب المدينة قبل ما يفتح . فقالوا للبواب : « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » والباب خشب بينهما عوارض ، وهو داخل الباب ، قال : « شيزر » ، فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم ، فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ، والافرنج رائحون غير منزعجين ، ولحقنا من الجند نفر ، فقلت لعمي : « عن أمرك آخذ أصحابنا واتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين » ، قال : « لا ، وكان أخبر مني بالحرب ، في الشام أفرنجي لايعرف شيزر ؟ هذه مكيدة » .

ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال : امضيا اكشفا تل ملح ، وكان مكمنا للافرنج ، فلما شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه فاستقبلنا متسرعيهم نريد الفرصة فيهم قبل ركود الحرب ، ومعنا جمعة النميري وابنه محمود ، وجمعة فارسنا

وشيخنا ، فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة : « يا فرسان الخيل ولدي » ، فرجعنا معه في ستة عشر فارسا طعنا ستة عشر فارسا من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم ، واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس ابن جمعة تحت ابطه ، فخلص ببعض تلك الطعنات .

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب باقدامه ، فوالله لقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، أغرنا على أفامية ، واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة فسيروها ، وعادوا ، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلا ، ورأيت جمعة النميري ، رحمه الله ، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البداد إلى فخذه ، ونفذ إلى خلفه ، فانكسرت القنطارية فيه ، فراعني ذلك ، فقال : « لابأس ، أنا سالم » .

ومسك سنان القنطارية وجذبها منه ، وهو وفرسه سالمان .

فقلت : « ياأبا محمود ، اشتهي اتقرب من الحصن أبصره » قال : « سر » ، فرحت أنا وهو نخب فرسينا ، فلما أشرفنا على الحصن إذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق ، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لاينزل منه إلا من تلك الطريق ، فقال لي جمعة : « قف حتى أريك ما أصنع فيهم » ، قلت : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت » ، قال : « سر » . فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعله غيرنا ، نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن ، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قوس ونشاب ، فرمانا ، ولا سبيل لنا إليه فهزمنا ، والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة ، ورجعنا دخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم ، وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي

هزمنا حسرة « اللي » ما كان لنا إليه سبيل ، وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

وشهدت يوما وقد أغارت علينا خيل كفرطاب في قلة ففزعنا اليهم طامعين فيهم لقلتهم ، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم ، وانهزم الذين اغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد ، فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم ، فرأينا أننا إن إنهزمنا قلعونا كلنا ، فالتقيناهم مستقتلين فنصر الله عليهم ، فقلعنا منهم ثمانية عشر فارسا : منهم من طعن فمات ، ومنهم من طعن فوقع وهو سالم ، ومنهم من طعن حصانه فهو راجل .

فجذب الذين في الارض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا كل من اجتاز بهم ضربوه ، فاجتاز جمعة النميري ، رحمه الله ، بواحد منهم فخطا إليه وضربه على رأسه ، وعلى رأسه قلنسوة ، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح ، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة ، فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الافرنج فقلت له : « ياأبا محمود ، ما تعصب جرحك » فقال : « ما هذا وقت العصائب وشد الجراح » ، وكان لايزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد وفي عينه عروق حمر ، فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكو من عينيه ، ولم يعد يناله منهما رمد و لا ألم

فربما صحت الاجسام بالعلل(٦١)

وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا ، فجاءني ابن عمي ذخيرة الدولة أبو القنا خطام ، رحمه الله ، فقال : « يابن عمي ، معك جنيبتان وأنا على هذا الفرس الحطم » ، قلت للغلام : « قدم له الحصان الاحمر » ، فقدمه له ، فساعة ما استوى في سرجه حمل على الافرنج وحده فافرجوا له حتى توسطهم وطعنوه رموه ، وطعنوا الحصان واقلبوا قنطارياتهم ، وصاروا يركشونه بها ، وعليه زردية حصينة ما تعمل

رماحهم فيها ، فتصايحنا : « صاحبكم ، صاحبكم » ، وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم ، وأما الحصان فمات في يومه ، فسبحان المسلم القادر

وتلك الوقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه ، فسبحان القائل :(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم)( ٦٢ )

وقد جرى لي مثل ذلك ، كنت بالجزيرة في عسكر أتابك فدعاني صديق لي الى داره ومعي ركابي اسمه غنيم قد استسقى ودقت رقبته وكبر جوفه وقد تغرب معي ، فأنا أرعى له ذلك ، فدخل بالبغلة إلى اصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين ، وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر ، فخرج إلى الاصطبل جذب سكينه وهجم على الغلمان ، فانهزموا وخرجوا . وغنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام ، فما قام حتى خرج كل من في الاصطبل ، فضربه ذلك السكران بالسكين تحت سرته فشق من جوفه قدر أربع أصابع ، فوقع موضعه . فحمله الذي دعانا ، وهو صاحب قلعة باشزى (٦٣ ) إلى داري ، وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه الى داري ، فاطلقته ، وتردد إليه الجرائحي فصلح ومشى وتصرف ، إلا أن الجرح ما ختم ، ومازال يخرج منه مثل القشور وماء اصفر مدة شهرين ، ثم ختم وضمر جوفه وعاد إلى الصحة ، فكان ذلك الجرح سببا لعافيته .

ورأيت يوما البازدار قد وقف بين يدي والدي ، رحمه الله ، وقال : « يامولاي ، هذا الباز قد لحقه حص(٦٤ ) وهو يموت ، وعينه الواحدة قد تلفت ، فتصيد به ، فهو باز شاطر وهو تالف » ، فخرجنا إلى الصيد وكان معه ، رحمه الله ، عدة بزاة . فرمى ذلك الباز على دراجة وكان يهجم في الذبج (٦٥) . فذبحت الدراجة في اجمة حلفاء ودخل الباز معها ، وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة ، فضربته شوكة من الحلفاء في تلك النقطة ففقتها » ، فجاء به البازدار ، وعينه قد سالت وهي مطبوقة ، فقال : « يامولاي ، تلفت

عين الباز » ، فقال : « كله تالف » ثم من الغد فتح عينه وهي سالمة ، وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين فكان من أشطر البزاة .

ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكر البزاة ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات ، وغنيم شق ذلك السكران جوفه سلم وعوفي ، فسبحان القادر .

وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم ، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي لعلي أنال منهم فرصة ، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين ، فعبر علي في من عبر محمود بن جمعة ، فقلت : « قف يامحمود » ، فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عني ، ووصلني أوائل خيلهم ، فاندفعت بين أيديهم وأنا راد رمحي اليهم ملتفت أنظرهم لا يتسرع إلي منهم فارس يطعنني ، وبين يدي جماعة من أصحابنا ، ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل ، فندس(٦٦) فرسي بصدرها رجل(رجل) من أصحابنا ، فرددت رأس فرسي على يساري ، فضربتها بالمهاميز ففزت الحائط ، فضبطت حتى صرت أنا والافرنج مصطفين وبيننا الحائط ، فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر ، فظننت أن ما تحته درع ، فتركته حتى تجاوزني وضربت الفرس بالمهاميز ، ففزت الحائط ، وطعنته ، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يده والخونة عن رأسه ، ونحن قد وصلنا الى رجالنا ، ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زردية تحت التشهير .

فما جرحته الطعنة ، وأدركه اصحابه ثم عادوا ، وأخذ الرجالة الترس والرمح والخونة .

فلما انقضى القتال ورجع الافرنج جاءني جمعة ، رحمه الله ، يعتذر عن ابنه محمود وقال : « هذا الكلب انهزم عنك » ، قلت : « وأي شيء يكون ؟ » قال : « ينهزم عنك ولايكون شيء ؟» قلت :

« وحياتك ياأبا محمودوانت تنهزم عني أيضا » ، قال : « ياشين والله إن موتي أسهل علي من أن انهزم عنك » ، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة فأخذوها لنا باقورة وحبسوها في جزيرة(٦٧) تحت الطاحون الجلالي .

وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة . فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي - مولد لنا - وكان رجلا شجاعا ، فقلت لهما : « نعبر الماء ونأخذ الدواب » ، فعبرنا ، فأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر ، فوالله ما رمحت ولا قلقت ولا كأنها احسست بالجرح ، وأما جمعة فرجع خوفا على فرسه ، فلما عدنا قلت : « ياأبا محمود ، ما قلت لك إنك تنهزم عني وأنت تلوم ابنك محمودا؟ » قال : « والله ما خفت إلا على الفرس . فانها تعز علي » واعتذر .

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة إلى الجزيرة ، فاقتتلنا نحن وهم ، وفيهم فرسان عسكر حماة : سرهنك وغازي التلي ، ومحمود بن بلداجي وخضر الطوط واسباسلار خطلخ ، وهم أكثر عددا منا ، فحملنا عليهم ، فهزمناهم وقصدت فارسا منهم أريد أطعنه واذا هو خضر الطوط ، فقال : « الصنيعة ، يافلان ! » فعدلت عنه الى آخر فطعنته فوقع الرمح تحت ابطه ، فلو تركه ما كان وقع ، فشد عضده عليه يريد يأخذ الرمح والفرس مسندرة(٦٨ ) بي فطار في السرج على رقبة الحصان ، فوقع . ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجلالي ، فضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل ، وحمدت الله سبحانه الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنة لأنه كان غازي التلي ، وكان رحمه الله ، رجلا جيدا .

ونزل علينا عسكر أنطاكية في بعض الايام منزلا كان ينزله كلما نزل علينا ، ونحن ركاب مقابلهم وبيننا النهر ، فلم يقصدنا منهم أحد ، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها ، فرجعنا نحن نزلنا في دورنا ،

ونحن نراهم من الحصن ، فخرج من جندنا نحو من عشرين فارسا الى بندرقنين قرية بالقرب من البلد يرعون خيلهم ، وقد تركوا رماحهم في دورهم ، فخرج من الافرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم ، فصادفا رجلا ، وعلى الطريق يسوق بهيمة فأخذاه وبهيمته ونحن نراهم من الحصن ، وركب اولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح ، فقال عمي : « هؤلاء عشرون لايخلصون أسيرا مع فارسين ، لو حضرهم جمعة رأيتم ما يعمل » ، هو يقول ذلك وجمعة لابس يركض إليهم ، فقال عمي « أبصروا الساعة ما يعمل » .

فلما دنا من الفارسين وهو يركض كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة ، فلما رأى عمي توقفه عنهما ، وهو على روشن له في الحصن يراه ، دخل من الروشن مغضبا وقال : « هذا خذلان !» ، وكان توقف جمعة خوفا من جورة كانت بين يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين ، فلما وصل تلك الجورة وما فيها أحد حمل على الفارسين خلص الرجل والبهيمة وطردهما إلى الخيام .

وكان ابن بيموند صاحب انطاكية يرى ما جرى ، فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف للدواب ، ورمى خيمتهما وطردهما وقال : « فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الافرنج ، ما أنتم رجال ، أنتم نساء » .

واما جمعة فوبخه وحرد عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما ، فقال : « يامولاي ، خفت يكون لهم في جورة رابية القرافطة كمين يخرج علي ، فلما كشفتها وما رأيت فيها أحدا استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى نخلا عسكرهما » ، فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه .

والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم ، وقد

حاكمتهم مرة ، على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك : « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد ان اتلفها » ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة ، فتوسل إلي ولعل(٦٩ ) علي ، وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم .

ولقد قال لي الملك : «يافلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما » ، قلت : «والله يفرح الملك بماذا فرحت ؟» قال : «قالوا لي انك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد أنك فارس » ، قلت : « يامولاي ، أنا فارس من جنسي وقومي » ، وإذا كان الفارس دقيقا طويلا ، كان أعجب لهم .

وكان نزل علينا ذكري وهو أول اصحاب انطاكية بعد بيموند ، فقاتلنا ثم اصطلحنا ، فذفذ حصانا لغلام لعمي عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرسا جوادا ، فذفنه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له حسذون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ، ليس سابق بالحصان بين يدي ذكري ، فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها ، وحضر بين يدي ذكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع فخلع عليه ذكري ، فقال له حسذون : « يامولاي ، أريدك تعطيني أمانك أنك ان ظفرت بي في القتال ، تصطنعني وتطلقني » ، فاعطاه امانه ، على ما توهم حسذون ، فانهم لايتكلمون إلا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .

ومضى على هذا سنة أو أكثر وانقضت مدة الصلح ، وجاءنا دنكري في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وكانت خيلنا لقيت أوائلهم ، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كردي ، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة ، وحسنون واقف مع والدي ، رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده ، فأبطأ عليه واقلقه طعن كامل المشطوب فقال لوالدي : « يامولاي ، أمر لي بلباس خفيف » ، فقال : « هذه البغال عليها السلاح واقفة . مهما صلح لك البسة » ، وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي ، وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال ، فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب ، فتقدم على حجرته ، وهو معرى ، فاعترضه فارس منهم ، فطعن الفرس في قطاتها(٧٠ ) فعضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب الافرنج ، فاخذوه أسيرا وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دنكري ، لعنه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئا » ، فقلعوا عينه اليمين كما امرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصانا أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة جوادا من أحسن الخيل ، فاشتراه بالحصان ، رحمه الله .

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير ، فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم ، فحرد دنكري وقال : « أنتم فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند - يعني رجالة - ما تدرون تقلعونهم من موضعهم!» قالوا : « انما خوفنا على الخيل ، وإلا دسناهم وطعناهم » ، قال : «الخيل لي ، من قتل حصانه اخلفته عليه» ، فحملوا على الناس عدة حملات ، فقتل منهم سبعون حصانا وما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم .

وكان برُفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا (٧١ ) ،

فكان ابدا يقول : « ترى ما التقى جمعة في القتال؟ » ، وجمعة يقول : « ترى ما التقى بدرهوا في القتال ؟» .

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله ، وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم ، وصاح بهم : « فيكم جمعة ؟» قالوا : «لا » ، والله ما كان حاضرا فيهم ، وكان ذلك الفارس بدرهوا ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته : يحيى بن صافي الاعسر ، وسهل بن أبي غانم الكردي ، وحارثة النميري ، وفارس آخر .

فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدا منهم طعنه فشلة ما ألحقه حصانه ليمكن الطعن ، وعاد الى الخيام

ودخل اولئك النفر الى البلد فافتضحوا ، واستخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا :« أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ، كنتم افترقتم له فكان طعن واحدا منكم وكان الثلاثة قتلوه ، ولا قد افتضحتم » ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري

فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم ، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين ، بعد تلك الهزيمة .

وأما بدرهوا فانه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد انطاكية . فخرج عليه الأسد من غاب في الروج في طريقه فخطفه عن بغلته ودخل به الى الغاب أكله ـ لارحمه الله .

ومن اقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير : فمن ذلك ان اسباسلار مودود رحمه الله ، نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمس مائة وقد قصده ذكري صاحب انطاكية في جمع كثير، فخرج اليه عمي ووالدي ، رحمهما

الله ، وقالا: « الصواب ان ترحل - وكان نازلا شرقي البلد على النهر - وتنزل في البلد ، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة ونلقى الأفرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا » فرحل ونزل كما قالا له ، واصبحا خرجا اليه ، وخرج من شيزر خمسة آلاف راجل معدين ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه .

وكان معه ، رحمه الله ، رجال جياد ، فصفوا من قبلي الماء والأفرنج نزول شماليه ، فمنعوهم من الشرب والورود نهارهم ، فلما كان الليل رحلوا راجعين الى بلادهم والناس حولهم ، فنزلوا على تل الترمسي ( ٧٢ ) فمنعوهم من الورود كما عملوا بالأمس ، فرحلوا في الليل ونزلوا على تل التلول ( ٧٣ ) والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير ، فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود ، ورحلوا في الليل متوجهين الى أفامية ، ففزع اليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون ، فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسطهم ، فقتلوا حصانه ، وأخذوه بالجراح ، فقاتل وهو راجل حتى وصل الى اصحابه .

ودخل الأفرنج أرضهم وعاد المسلمون عنهم .

ومضى اسباسلار مودود ، رحمه الله ، الى دمشق ، فجاءنا بعد اشهر كتاب دنكري صاحب انطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول :« هذا فارس محتشم من الأفرنج ، وصل حج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن اسيره اليكم يبصر فرسانكم ، وقد نفذته فاستوصوا به » ، وكان شابا حسن الصورة حسن اللباس ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه الى حكمته ( ٧٤ ) ، فسألت عنه فقالوا : « هذا الذي حمل على عسكر اسباسلار مودود ، وقتلوا حصانه ، وقاتل حتى رجع الى اصحابه »، فتعالى الله القادر على مايشاء كيف شاء لايؤخر الأجل الاحجام ولايقدمه الاقدام .

ومن ذلك ماحكاه لي العقاب الشاعر ، رجل من اجنادنا من المغرب ، قال :« خرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق ومعه أربعة فوارس وأربعة رجاله وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعوها ، قال : بينا نحن نسير اذا فارس مقبل من صدر البرية ، فجاء يسير حتى صار بالقرب منا ، فقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فاطلق حصانه علينا ، فطعن منا فارسا رماه عن فرسه وجرحه ، فطردناه فسبق ، ثم عاد الينا وقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فحمل علينا ، فطعن راجلا منا اوثقه بالجرح وتبعناه فسبقنا ، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا ، فاستقبله رجل منا ، فطعنه صاحبنا فوقعت الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صاحبنا ، وطعنه الفارس فجرحه ، ثم حمل علينا فطعن رجلا منا فصرعه ، وقال : خلوا عن الجمال ، والا افنيتكم ، قلنا : تعال خذ نصفها ، قال : لا ، احبسوا منها اربعة اتركوها وقوفا وخذوا أربعة وامضوا ، ففعلنا وماصدقنا نخلص بما سلم معنا ، وساق هو تلك الأربعة ونحن نراه مالنا فيه حيلة ولاطمع ، وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال » .

ومن ذلك ان دنكري صاحب أنطاكية أغار على شيزر ، فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى • ونزل على قرية يقال لها زلين فيها مغار معلقة لايوصل إليها في وسط الجبل ، ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع ، إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال ، وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وخمس مائة فجاء شيطان من فرسانهم الى دنكري فقال :« اعمل لي صندوقا من خشب ، وأنا أقعد فيه ، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل أوثقوها في الصندوق حتى لايقطعوها بالسيوف ، فاسقط » ، فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقات الى المغار ، فأخذها وأنزل كل من كان فيها الى دنكري ، وذلك أن المغار بهو مافيه مكان يستتر الناس فيه ، وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقع نشابة الا في انسان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه .

وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من اصل جيد من العرب ، وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، قبل ذلك وهي في بيت أبيها ، فأرسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلوها لها وأما أروها غيرها ، فخطبها عمي وتزوجها ، فلما دخلت عليه رأى غير ماوصف له منها ، ثم هي خرساء ، فوفاها مهرها وردها الى قومها ، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم ، فقال عمي :« ما ادع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الأفرنج » ، فاشتراها ، رحمه الله ، بخمس مائة دينار وسلمها الى أهلها .

ومن ذلك ماحدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة قال :« أقطع الخليفة والدي ضيعة وهو يتردد اليها ، وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ، والدي يصانعهم لخوفه منهم ولانتفاعه بشيء مما يأخذونه ، فنحن يوما جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجاريه راكبة فوق الخرج ، فنزل وأنزل الجارية فقال :يافتيان ، اسعدوني على حط الخرح ، فجئنا حططناه معه ، واذا به كله دنانير ذهب ومصاغ ، فجلس هو والجارية أكلا شيئا ثم قال :« اسعدوني على رفع الخرج » فرفعناه معه ، فقال لنا : كيف طريق الأنبار » ؟ فقال له والدي : الطريق هاهنا – وأشار الى الطريق – ولكن في الطريق ستون عيارا أخاف عليك منهم ، فضرط له وقال :« أنا أخاف من العيارين !»

فتركه والدي ومضى الى العيارين أخبرهم خبره ومامعه ، فخرجوا حتى عارضوه في الطريق ، فلما رآهم أخرج قوسه وترك فيه سهما واستوفاه يريد يرميهم ، فانقطع الوتر ، فهجم عليه العيارين ، فانهزم ، واخذوا البغل والجارية والخرج ، فقالت لهم الجارية : ياشباب ، بالله لاتهتكوني ، وبيعوني نفسي والبغل ايضا بعقد جوهر مع التركي

قيمته خمس مائة دينار ، وخذوا الخرج ومافيه ، قالوا : « قد فعلنا » قالت ابعثوا معي بعضكم حتى أتحدث مع التركي وآخذ العقد، فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركي وقالت له : قد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق موزك خفك اليسار • فادفعه لي ، قال : نعم » واندفسح عنهم وأخرج الساق ( ٧٥ ) موزا واذا فيه وترقوس ، فركبه على قوسه ورجع اليهم ، فما زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحدا واحدا حتى قتل ثلاثة وأربعين رجلا ، ونظر فاذا والدي في الجماعة الباقين من العيارين فقال :« وأنت فيهم ، فتشتهي أعطيك نصيبك من الذشاب ؟ » قال « لا » ، قال : خذ هؤلاء السبعة عشر الباقين امض بهم الى شحنة البلد يشنقهم واولئك قد زنهروا ورموا سلاحهم ، وساق بغله بما عليه ومضى ، وقد ارسل الله تعالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة »

ومن ذلك ماحضرته في سنة تسع وخمس مائة وقد خرج والدي ، رحمه الله ، بالعسكر الى اسباسلار برسق بن برسق ، رحمه الله ، وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة ، وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء : منهم أمير الجيوش اوزبه صاحب الموصل ، وسنقر دراز صاحب الرحبة ، والأمير كند غدي ، والحاجب الكبير بكتمر ، وزنكي بن برسق وكان من الأبطال ، وتميرك ، واسماعيل البكجي ، وغيرهم من الأمراء فنزلوا على كفر طاب وفيها أخو ثيوفل والأفرنج ، فقاتلوها ، ودخلوا الخراسانية في الخندق ينقبون ، والأفرنج قد ايقنوا بالهلاك ، فطرحوا النار في الحصن فأحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى ، فاحترق الجميع ، وبقي الأفرنج معلقين في اعلاه على الحيطان .

فوقع لي أن أدخل في الذقب أبصره ، فنزلت في الخندق ، والذشاب والحجار مثل المطر علينا ، ودخلت

الذقب ، فرأيت حكمه عظيمة : قد نقبوا من الخندق الى البـاشورة وأقاموا في جوانب الذقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع مـن تهـدم مافوقها ، ونظمـوا الذقـب بـالأخشاب كذلك الى اسـاس البرج ، والذقب ضيق ، إنما هو طريق الى البرج ، فلمـا وصـلوه وسعوا الذقب في حائط البرج وحملوه على الأخشـاب ، ويخـرجون نقارة الأحجار اولا فأولا ، وأرض الذقب مـن النقش قـد صـارت طينا ، فرأيته وخرجت ولم يعـرفني الخـراسانية ، ولو عرفـوني ماتركوني اخرج الا بغرامة كثيرة لهم .

وشرعوا في تقطيع الخشـب اليابس وحشـوا الذقـب بـذلك الخشب ، وأصبحوا طـرحوا فيه النار ، وقـد لبسـنا وزحفنا الى الخندق لنهجم الحصن اذا وقـع البـرج ، وعلينا مـن الحجـارة والنشاب بلاء عظيم ، فاول ما عملت النار صـار يسـقط مـا بين الاحجار من تكحيل الكلس ثم انشـق واتسـع الشـق ووقـع البرج ، ونحن نظن انه اذا وقع تمكنا من الدخـول عليهـم ، فـوقع لوجه البراني وبقي الحائط الجواني كمـا هـو ، فـوقفنا الى أن حميت علينا الشمس ورجعنا الى خيامنا ، وقد نالنا مـن الحجـارة أذى كبيرا .

فمكثنا الى الظهر ، واذا قد خرج من العسكر راجل واحـد معـه سيفه وترسه فمضى الى حائط البرج الذي قد وقـع ، وقـد صـارت جوانبه كدرج السلم ، فتوقل فيه حتى صـعد الى أعلاه ، فلمـا رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بعدتهم فصـعدوا واحدا وراء واحد حتى صـاروا على البـرج والأفـرنج لايشـعرون بهم ، ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا ، فكثروا على البرج قبـل ان يتكامل الناس عندهم .

ففزع اليهم الأفرنج فرموهم بـالنشاب ، فجـرحوا الذي طلع في الأول ، فنزل وتتابع الناس في الطلوع ، وصاروا مع الأفـرنج على بدن من حيطان البرج ، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعـه

ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج ، وعلى البرج جماعة من الأفرنج يقاتلون الناس بالذشاب والحجارة ، فصعد رجل من الأتراك ، ونحن نراه ، ومشى والبلاء يأخذه الى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نفط ، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة البهم وقد رموا نفوسهم الى الأرض خوفا من الحريق ، ثم عاد .

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس ، فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زرديتان وبيده قنطارية وما معه ترس ، فلقيه التركي وفي يده سيفه ، فطعنه الأفرنجي ، فدفع سنان القنطارية عنه الترس ومشى الى الأفرنجي وقد دخل ، على الرمح ، إليه فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفا على رأسه ، فضربه التركي ضربات ماعملت فيه شيئا ، ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا فسلموا الحصن ونزل الأسارى الى خيام برسق بن برسق .

فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاريته على التركي وقد جمعوهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمنا يخلصون به ، فوقف وكان سرجنديا وقال:« كم تأخذون مني؟ » قالوا :« نريد ستمائة دينار » ، فضرط لهم وقال :« أنا سرجندي ، ديواني كل شهر ديناران من اين لي ستمائة دينار ؟» وعاد جلس بين أصحابه ، وكان خلقه عظيمة ، فقال الأمير السيد الشريف وكان من كبار الأمراء ، لوالدي رحمه الله :« ياأخي ترى هؤلاء القوم ؟ نعوذ بالله منهم ».

فقضى الله سبحانه ان العسكر رحل عن كفر طاب الى دانيث وصبحهم عسكر أنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر فقتل الأمير السيد ، رحمه الله ، وخلق كثير من المسلمين .

وعاد الوالد ، رحمه الله ، وكنت فارقته من كفر طاب وقد كسر

العسكر ، ونحن في كفر طاب نحرزها نريد نعمرها ، وكان اسباسلار سلمها الينا ، ونحن نخرج الأسارى كل اثنين في قيد من أهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذه ، وذا قد مات في النار ، فرأيت منهم عبرة عظيمة ، فتركناها وعدنا الى شيزر مع الوالد ، رحمه الله ، وقد أخذ كل ماكان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتجمل وتفرق العسكر .

وكان ماجرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم صاحب حلب ذلك الوقت ، قرر مع صاحب انطاكية ان يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من أنطاكية بعسكره يكسرهم ، فأرسل الى اسباسلار برسق رحمه الله ، يقول : « تنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أسلم اليه حلب ، فاني أخاف من أهل البلد أن لايطاوعوني على التسليم ، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين »، فنفذ اليه أمير الجيوش اوزبة ومعه ثلاثة آلاف فارس ، وصبحهم روجار لعنه الله ، كسرهم لنفاذ المشيئة .

وعاد الأفرنج لعنهم الله ، الى كفر طاب عمروها وسكنوها .

وقدر الله تعالى أن خلص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفر طاب ، فان الأمراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم الا ما كان من أمير الجيوش فانه تقدم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه الى حلب ، وافترق العسكر ـ من سلم منهم من دانيث ـ وتوجهوا الى بلادهم ، فذلك الرجل الذي طلع وحده الى برج كفر طاب كان سبب أخذها .

ومن ذلك : كان في خدمتي رجل يقال له نمير العلاروزري ، راجل شجاع أيد ، نهض هو وقوم من رجال شيزر الى الروج الى الأفرنج ، فعثروا في البلد على قافلة من الأفرنج في مغارة ، فقال بعضهم لبعض :« من يدخل عليهم ؟» قال نمير :« أنا » فدفع اليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم ، فاستقبله رجل منهم ، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله ، وخلفه افرنجي معه

سيف فضربه ، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز ، فهو يرد عنه ، فلما قتل الرجل الذي تحته التفت الى صاحب السيف يريده ، فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأذنه وشفته العليا ، فتدلى جانب وجهه على صدره ، فخرج من المغارة الى اصحابه فشدوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة ، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة ، فخيط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ماكان عليه ، الا أن عينه تلفت ، وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر وقد تقدم ذكرهم

وحدثني الرئيس سهري وكان في خدمة الأمير شمس الخواص التونتاش صاحب رفنية ، وكان بينه وبين علم الدين علي كرد صاحب حماة عداوة وخلاف ، قال :« أمرني شمس الخواص أن أخرج أقدر بلد رفنية وأبصر زرعه ، فخرجت ومعي قوم من الجند قدرت البلد ، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رفنية لها برج صعدنا الى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج ، فما شعرنا الا برجل قد اشرف علينا من بين شراريف البرج فصاح علينا ورمى نفسه الينا وفي يده سكينة فانهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا ، ونزلنا في السلم الثاني ، وهو خلفنا ، حتى وصلنا الباب ، فخرجنا وأذا قد رتب لنا رجالا على الباب فقبضونا جميعا وأوثقونا رباطا ودخلوا بنا الى حماة الى علي كرد ، فما فعل بنا ذلك كله رجل واحد »

ومثل ذلك جرى في حصن الخريبة ، كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، وفيها الحاجب عيسى واليها ، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ، ثم يرفع السلم فلا يبقى اليها طريق ، وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلامه وبواب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرجي يطلع اليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله ، فتحدث مع الاسماعيلية وقرر له معهم قرارا أرضاه من مال واقطاع ويسلم اليهم حصن الخريبة ، ثم جاء الى الحصن فاستأذن وطلع ، فبدأ

بالبواب قتله، ولقيه الغلام فقتله ، ودخل على الوالي قتله ، وعاد الى ابن الوالي قتله ، وسلمه الى الاسماعيلية وقاموا له بما كانوا قرروه له .

والرجال اذا قووا نفوسهم على شيء فعلوه .

ومن ذلك تفاضل الرجال في هممهم ونخواتهم ، وكان الوالد ، رحمه الله يقول لي:« كل جيد من سائر الأجناس ، من الرديء من جنسه مايكون بقيمته ، مثل حصان جيد يسوى مائة دينار ، خمس حصن رديئة تسوى مائة دينار ، وكذلك الجمال ، وكذلك أنواع الملبوس ، الا ابن آدم فان ألف رجل أرذياء لايساوون رجلا واحدا جيدا »، وصدق رحمه الله .

كنت قد نفذت مملوكا لي في شغل مهم الى دمشق ، واتفق أن أتابك زنكي رحمه الله ، أخذ حماة ونزل على حمص ، فاستدت الطريق على صاحبي ، فتوجه الى بعلبك ومنها الى طرابلس واكترى بغل رجل نصراني يقال له يونان فحمله الى حيث اكتراه وودعه ، ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل الى شيزر من حصون الجبل ، فلقيهم انسان فقال لأرباب الدواب :« لاتمضوا ، فان في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلا يأخذونكم » قال : « فوقفنا لاندري مانعمل ماتطيب نفوسنا بالرجوع ولانجسر على المسير من الخوف ، فنحن كذلك اذا الريس يونان قد أقبل مسرعا ، فقلنا ما لك ياريس ؟ قال سمعت ان في طريقكم حرامية جئت لأسيركم ،سيروا . فسرنا معه الى ذلك الموضع ، واذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا ، فلقيهم يونان وقال :« يافتيان ، موضعكم انا يونان ، وهؤلاء في خفارتي ، والله مافيكم من يتقرب منهم ؟ » فردهم والله جميعهم عنا ومأكلوا من عندنا رغيف خبز ، ومشى معنا يونان حتى أمنا ثم ودعنا وانصرف »

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور ، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة قال حدثني ابن والي الطور ـ وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله ، رحمه الله ، اذا اراد ابعاد بعض الأمراء ولاه الطور ، وهو قريب من بلاد الأفرنج ـ قال :« وليها والدي وخرجت أنا معه الى الولاية وكنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الأفرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار ، فبقيت في الجب سنة لايسأل عني أحد ، فأنا في بعض الأيام في الجب واذا قد رفع عنه الغطاء ودلي الي رجل بدوي ، فقلت :« من أين أخذوك ؟» قال :« من الطريق » فأقام عندي يوميات وقطعوا عليه خمسين دينارا ، فقال لي يوما من الأيام :« تريد تعلم ان مايخلصك من هذا الجب الا أنا ؟ فخلصني حتى اخلصك » فقلت في نفسي « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته ، ثم بعد ايام اعاد علي ذلك القول : فقلت في نفسي « والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه » فصحت بالسجان فقلت له :« قل للصاحب اشتهي أتحدث معك » فعاد واطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب ، فقلت له : لي في حبسك سنة ماسأل أحد عني ولايدري أنا حي أو ميت ، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين دينارا اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني اسيرة الى ابي حتى يفكني قال :« افعل »، فرجعت عرفت البدوي وخرج ودعني ومضى .

فانتظرت مايكون منه شهرين فما رأيت اثرا له ولا سمعت له خبرا ، فيئست منه ، فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج علي من نقب في جانب الجب وقال :« قم والله لي خمسة ( ٧٦ ) اشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني الى بيتي ، فما ادري مم اعجب من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب » .

واذا قضى الله سبحانه بالفرج فما اسهل اسبابه .

كنت اتردد الى ملك الأفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك رحمه الله ، ليد كانت للوالد . رحمه الله . على بغدوين الملك والد الملكة امراة الملك فلك بن فلك ، فكان الأفرنج يسوقون أساراهم الي لأشتريهم ، فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام جينا في موكب له يغزي فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو اربع مائة نفس رجال ونساء ، فكان يجيء أقوام مع مالكهم فاشتري منهم من قدرت على شراه ، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لايتكلم ، فسألت عنه فقيل لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ ، فقلت له : « بكم تبيعني هذا ؟ » قال « وحق ديني ماأبيعه الا هو وهذا الشيخ جملة كما اشتريتهما بثلاثة واربعين دينارا » فاشتريتهما واشتريت لي منهم نفرا ، واشتريت للأمير معين الدين رحمه الله ، منهم نفرا بمائة وعشرين دينارا، ووزنت ماكان معي وضمنت علي بالباقي .

وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين ، رحمه الله ، « قد اشتريت لك أسارى اختصك بهم ، وماكان معي ثمنهم ، والآن قد وصلت الى بيتي ، إن أردتهم وزنت ثمنهم ، والا وزنته انا »؟ قال :« لابل أنا أزن والله ثمنهم ، وأنا أرغب الناس في ثوابهم » ، وكان رحمه الله ، اسرع الناس الى فعل خير وكسب مثوبة، ووزن ثمنهم ، وعدت بعد أيام إلى عكا .

وقد بقي من الأسرى عند كليام جينا ثمانية وثلاثون اسيرا ، وفيهم امراة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي ، فاشتريتها منه ، وماوزنت ثمنها ، فركبت الى داره لعنه الله ، وقلت :« تبيعني منهم عشرة ؟» قال :« وحق ديني ماأبيع الا الجميع »، قلت :« مامعي ثمن الجميع ، وأنا اشتري بعضهم ، والذوبة الأخرى اشتري الباقي » قال: « ماأبيعك الا الجميع » فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة

جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم الأسير أخفوه وأوصلوه الى بلاد الاسلام .

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه خلاصهم ، واصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وماوزنت ثمنها وقد هربت في من هرب ، فقلت :« سلمها الي وخذ ثمنها » قال :« ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب » وألزمني بوزن ثمنها ، فوزنته وهان ذلك علي لسرتي بخلاص أولئك المساكين .

ومن عجائب السلامة اذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة ان الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق ، رحمه الله ، عمل على مدينة آمد عدة مرار ، وأنا في خدمته ، ولايبلغ منها مقصودة ، وكان آخر ماعمل عليها أن أميرا من الأكراد كان مديونا بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقرر الأمر أن تصله العساكر في ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد ، فعول فخر الدين في ذلك المهم على خادم له افرنجي يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسو أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب باقي الأمراء فتبعوه ، وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى آمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ودلوا اليهم الحبال وقالوا :« اطلعوا » - ماطلع منهم أحد ، فنزلوا كسروا أقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » مادخلوا ، وكل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار .

وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان والبلدية والجند ، ففزعوا اليهم ، فقتلوا بعضهم ، ورمى بعضهم نفسه ، وقبضوا بعضهم ، ومد بعض الذين رموا نفوسهم ، وهو نازل في الهواء ، يده كأنه يريد شيئا يتمسك به ، فوقع في يده حبل من تلك الحبال التي دلوا أول الليل وماطلعوا فيها فتعلق به ونجا

دون أصحابه ، وإلا أن كفيه انسلختا من الحبل ، هذا وأنا حاضر .

وأصبح صاحب آمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة انقذ الانسان من لهاة الأسد فذلك حق لامثل .

كان في حصن الجسر ( ٧٧ ) رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له ، فاجتاز بكفر نبوذا ( ٧٨ ) وقافلة عابرة على الطريق ، فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع ، فصاح اليه أهل القافلة :« ياصاحب الخشت ( ٧٩ ) البراق دونك الأسد » فحمله الحياء من صياحهم ان حمل على الأسد فحاصت به الفرس فوقع ، وجاء فبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شبعان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم ، وهو بارك عليه لايؤذيه ، قال :« ففتحت عيني فأبصرت لهاة الأسد ، ثم جذبت نفسي من تحته ، ورفعت فخذه عني ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرآني وجاء خلفي ، فسبقت وطلعت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاني من الذر شيء عظيم على تلك الجراح - والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر - قال :« فرأيت الأسد قد قعد وانصب آذانه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول فاذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه الى بيته ، وكان اثر انياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار فسبحان المسلم

قلت : تفاوضنا يوما في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة ( ٨٠ ) رحمه الله ، يسمع فقلت له :« ياا ستاذ ، لو ركبت حصانا ولبست كزاغندا وخونة وتقلدت سيفا وحملت رمحا وترسا ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الأفرنج ، لعنهم الله ، يجتازون به - ماكان

يجوزك أحد منهم » ، قال :« بلى والله كلهم » ، قلت :« كانوا يهابونك ، ولايعرفونك » قال :« سبحان الله ، فأنا ماأعرف نفسي !» ، ثم قال لي « يافلان ، مايقاتل عاقل » قلت: « ياأستاذ تحكم على فلان وفلان وعددت له رجالا من أصحابنا من شجعان الفرسان أنهم مجانين !» قال:« ماهذا قصدت ، انما قصدي ان العقل لايحضر وقت القتال ، ولو حضر ماكان الانسان يلقى بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام ، ماهذا شيء يقضي به العقل ».

وكان رحمه الله ، بالعلم أخبر مما هو بالحرب ، فان العقل هو الذي يحمل على الاقدام على السيوف والرماح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الأحدوثة ، ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمع والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد يعمله ويباشره من الخطر ، والنفس ترتاع لذلك وتكرهه ، فاذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمع والرعدة وتغير اللون ، وكل أمر لايحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل .

ومن ذلك ان الفرنج نزلوا مرة على حماة في أزوارها و فيها زرع مخصب ، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع ، وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يديرون بعسكر الأفرنج يسرقون منه ، فرأوا الخيام في الزرع ، فأصبح بعضهم حضر صاحب حماة وقال :« الليلة احرق عسكر الأفرنج كله » قال :« ان فعلت خلعت عليك » فلما امسى خرج ومعه نفر على رأيه طرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح الى خيامهم ، فصار الليل بضوء النار كالنهار ، فرآهم الأفرنج فقصدوهم فقتلوا أكثرهم ، ومانجا منهم الا من رمى نفسه بالماء وسبح الى الجنب الآخر ، فهذه آثار الجهل وعواقبه .

ورأيت مثل ذلك ، وان لم يكن في الحرب ، وقد عسكر الأفرنج على بانياس في جمع كثير ، ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد

فرش ارضها بالحلفاء والحشيش ، فكثرت البراغيث فطرح فيه النار ، وقد يبس ، فارتفعت السنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا ، فهذا لم يحضره العقل

وضده اننا ركبنا في بعض الأيام من شيزر الى الصيد وعمي ، رحمه الله ، معنا وجماعة من العسكر ، فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج ، فحمل عليه رجل من الجند كردي يقال له زهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك للطف خلقته ، وكان رحمه الله ، من فرسان المسلمين ، فاستقبله السبع فحاص به الحصان ، وجاءه السبع وهو ملقى ، فرفع رجله ، فتلقمها السبع ، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له :« يازهر الدولة ، لم رفعت رجلك الى فم السبع ؟» فقال:« جسمي كما ترونه ضعيف نحيف ، وعلي ثوب وغلالة ، وما في أكسى من رجلي ، فيها الرانات والخف والساق موزا ، فقلت :« اشغله بها عن أضلاعي أو يدي أو رأسي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول ، وأولئك ماحضرهم العقل ، فالانسان أحوج الى العقل من كل ماسواه ، وهو محمود عند العاقل والجاهل .

ومن ذلك ان روجار صاحب انطاكية كتب الى عمي يقول :« قد ذفنت فارسا من فرساني في شغل مهم الى القدس ، أسأل أن تذفذ خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه الى رفنية »، فركب وأرسل اليه من أحضره ، فلما لقيه قال :« قد ذفنني صاحبي في شغل وسر له ، لكني رأيتك رجلا عاقلا ، فأنا أحدثك به » فقال له عمي :« من اين عرفت أني عاقل ومارأيتني قبل الساعة ؟ » قال « لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر ،فعرفت أنك ماعمرته الا بعقلك وسياستك » ، وحدثه ماجاء فيه .

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب إربل قال :« حدثني أبو الهيجاء وقال :« بعثني السلطان ملك شاه لما وصل الى الشام

الى الأمير ابن مروان صاحب ديار بكر يقول :« أريد ثلاثين ألف دينار ، فاجتمعت به وأعدت عليه الرسالة ، فقال :« تستريح ونتحدث واصبح أمر أن يدخلوني الحمام ، ونفذ آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب ، وقالوا لفراشي : كل آلة الحمام لكم ، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج ، فتركني أياما ثم أمر لي بالحمام وماأذكر رد الحوائج ، وحملوا معى آلة الحمام أفضل من الآلة « الأولة » وبدلة ثياب افضل من البدلة «الأولة » وقال الفراش لفراشي كما قال أولا ، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الحوائج والثياب ، فتركني ثلاثة أربعة أيام ثم عاد أدخلني الى الحمام وحملوا معي آلات فضة أفضل من« الأولة» ، وبدلة ثياب افضل من «الأولة »، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع ، فلما حضرت عند الأمير قال لي :« ياولدي»، دفنت اليك ثيابا مالبستها ، وآلة الحمام ماقبلتها ، ورددتها ، اي شيء سبب هذا ؟ قلت : يامولاي ، جئت برسالة السلطان في شغل ماانقضى ، أقبل ماتفضلت به وأرجع وماانقضى شغل السلطان فكأني ماجئت الا في حاجتي ، قال : ياولدي مارأيت عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضياعها أتراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار ؟ والله إن الذهب قد كيسته من يوم وصولك ، وانما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادي وتلحقه بالمال خوفا من أن استقبله بالذي طلب ، فيطلب مني اذا دنا من بلادي اضعافه ، فلا تشغل قلبك ، فشغلك قد انقضى ، ثم نفذ لي الثلاث بدلات ، التي كان نفذها لي ورددتها ، مع جميع حوائج الحمام التي نفذها لي في الثلاث دخلات ، فقبلتها ، ولما تجاوز السلطان ديار بكر ، أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان » .

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد ، فمن ذلك ان أتابك زنكي ، رحمه الله ، خطب بنت صاحب خلاط وقد مات أبوها وأمها مدبرة البلد ، ونفذ حسام الدولة بن لاج خطبها لابنه ، وهو صاحب بدليس فسار أتابك بعسكر حسن الى خلاط على غير الطريق المسلوك لأجل درب بدليس فسلك فيها الجبال ، فكنا ننزل

بغير خيام ، وكل واحد في موضعه من الطريق حتى وصلنا خلاط فخيم أتابك عليها ودخلنا قلعتها وكتبنا المهر .

فلما انقضى الشغل أمر أتابك أن يأخذ صلاح الدين معظم العسكر ويسري الى بدليس يقاتلها فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على بدليس ، فخرج الينا حسام الدولة صاحبها ، فلقينا على فسحة من البلد ، وأنزل صلاح الدين في الميدان ، وحمل اليه الضيافة الحسنة ، وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال :« يامولاي ، اي شيء ترسم ؟ فقد تعنيت وتعبت في مجيئك » قال :« اتابك اخذه خطبتك للبنت التي كان خطبها ، وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار نريدها منك » قال :« السمع والطاعة » فعجل له بعض المال واستمهله بباقيه اياما عينها ، ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر مادخل عليه خلل .

وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم رحمه الله ( ٨١ ) وذلك ان جوسلين أغار على الرقة والقلعة فأخذ كل ماعليها وسبى وساق غنائم كثيرة ، ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات ، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من غلمانه وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة ، ولمالك عليه جميل ، وظن جوسلين أن في الزورق رسولا من مالك ، فجاءه واحد من الأفرنج وقال :« هذا مالك في الزورق »، قال :« ماهو صحيح » ، فأتاه آخر قال :« نزل مالك من الزورق وهو جاءني يمشي »، فقام جوسلين والتقاه وأكرمه ورد عليه جميع ماكان أخذه من الغنائم والسبي ، ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده .

## اذا انقضت المدة لم تنفع الشجاعة ولا الشدة .

شاهدت يوما وقد زحف الينا عسكر الافرنج يقاتلنا ، ومضى بعضهم مع طغدكين أتابك الى حصن الجسر يقاتله ، وكان أتابك

اجتمع هو وايلغازي بن أرتق و الأفرنج في افامية لمحاربة عساكر السلطان وكان وصل بها الى الشام اسباسلار برسق بن برسق ، وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مائة فأما نحن فقاتلونا بالقرب من سور المدينة ، فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم ، فشاهدت رجلا من أصحابنا يقال له محمد ابن سرايا وهو شاب شديد أيد ، قد حمل عليه فارس من الأفرنج لعنه الله ، فطعنه في فخذه فنفذ القنطارية فيها ، فمسكها محمد وهي في فخذه ، وجعل الافرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قورت فخذه ، واستلب القنطارية بعد أن أتلف فخذه ، ومات بعد يومين ، رحمه الله .

ورأيت في ذلك اليوم ، وأنا في جانب الناس في القتال ، فارسا قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله ، وصاحبنا راجل في الأرض ولاأدري من هو لبعد مابيننا ، فدفعت حصاني اليه خوفا عليه من الأفرنجي الذي طعنه ، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه ، والأفرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبله ، فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد ، رحمه الله ، فوقفت عليه وأخليت له ركابي وقلت :« اركب » فلما ركب رددت رأس حصاني الى المغرب ، والمدينة من شرقينا ، قال لي :« الى أين تروح ؟» قلت :« الى هذا الذي طعن حصانك ، فهو فرصة » فمد يده وقبض على عنان الحصان وقال :« ماتطاعن وعلى حصانك لابسان ، اذا اوصلتني ارجع طاعنه » فمضيت أوصلته وعدت الى ذلك الكلب ، وقد دخل في اصحابه.

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الأفرنج ، لعنهم الله ، نزلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لايمكنهم ان يجوزوا الينا ،و لانقدر نحن نجوز اليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ، ونزل منهم قوم الى البساتين

وهي من جانبهم ، هملوا خيلهم في القصيل وناموا ، فتجرد شباب من رحالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا الى اولئك النيام ، فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على اصحابنا ، فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا ، وعسكرالفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد ابي المجد بن سمية فيه رجل يقال له حسن الزاهد ، وهووا قف على سطح يذوب في المسجد يصلي وعليه ثياب سود صوف - ونحن نراه ومالنا اليه سبيل ، وقد جاء الأفرنج فنزلوا علي باب المسجد وصعدوا اليه ونحن نقول: لاحول ولاقوة الا بالله الساعة يقتلونه ، فلا والله ماقطع صلاته ولازال من مكانه ، وعاد الأفرنج نزلوا وركبوا خيلهم وانصرفوا وهو واقف مكانه ، ولاشك ان الله سبحانه اعماهم عنه وستره عن ابصارهم ، فسبحان القادر الرحيم .

ومن الطاف الله تعالى ان ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنين وثلاثين وخمس مائة خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال فاقتطعهم الروم فقتلوا واسروا بعضا في جملة من أسروا زاهد من بني كردوس من الصالحية ، من مولدي محمود بن صالح(٨٢) صاحب حلب ، فلما عاد الروم كان معهم مأسورا ، فوصل القسطنطينية ، فهو في بعض الأيام فيها اذ لقيه انسان فقال: «أنت ابن كردوس؟» قال «نعم» قال «سر معي أوقفني على صاحبك» فسار معه حتى اراه صاحبه ، فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه فوزن له الثمن وأعطى ابن كردوس نفقة وقال: «تبلغ بها الى اهلك ، وامض في دعة الله تعالى ، فخرج من القسطنطينة وتوصل الى ان عاد الى شيزر ، وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه ، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه .

وقد جرى لي ما يشبه ذلك لما خرج علينا الافرنج في طريق مصر وقتلوا عباس بن أبي الفتوح وابنه نصرا الكبير ، انهزمنا نحن الى جبل قريب منا ، فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرون خيلهم وأنا

على اكديش ولا استطيع المشي ، فصعدت وأنا راكب وسفوح ذلك الجبل كلها ذقارة وحصى كلما وطئة الفرس انهر تحت قوائمه ، فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع ، ونزل والحصى والذقارة تنزل به ، فترجلت عنه وأقمته ووقفت لا أقدر على المشي ، فنزل الي رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذوني في يدي الأخرى حتى اطلعني ، ولا ، والله ، ما أدري من هو ولا عدت رأيته .

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتن فيه بيسير الاحسان ، ويطلب المكافأة عنه ، ولقد شربت من بعض الأتراك شربة ماء اعطيته عنها دينارين ، وما زال بعد وصولنا دمشق يقتضيني حوائجه ويتوصل بي الى اغراضه لأجل تلك الشربة التي سقانيها ، وما كان ذلك الذي اعانني الا ملكا رحمني الله تعالى فأغاثني به .

ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبد الله المشرف قال «حبست بحيزان ( ٨٣ ) قيدت وضيق علي ، فأنا في الحبس والموكلون على بابه فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم فقال: «اقلع القيد واخرج» فانتبهت جذبت القيد ، فخرج من رجلي ، وقمت الى الباب أريد افتحه ، فوجدته مفتوحا ، فتخطيت الرجال الموكلين الى منفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه ، فخرجت منه ، ووقعت على مزبلة ، فبقي فيها آثار وقوعي وآثار رجلي ، ونزلت في واد حول السور ودخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا اقول في نفسي: الساعة يخرجون يرون أثري ويأخذوني ، فأرسل الله سبحانه ثلجا غطى ذلك الأثر ، وخرجوا يطوفون علي ، وأنا أراهم نهارهم ذلك ، فلما امسيت وأمنت الطلب خرجت من تلك المغارة وسرت الى مأمني » ، كان هذا الرجل مشرفا على مطبخ صلاح الدين محمد بن أيوب اليفسانياني رحمه الله .

ومن الناس من يقـــاتل كمـــا كان الصـــحابة ، رضـــوان الله عليهم ، يقاتلون للجنة لا لرغبة ولا لسمعة

ومن ذلك أن ملك الالمان الافـرنجي ، لعنة الله ، لما وصـل الشـام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج ، وقصد دمشق ، فخـرج عسكر دمشق واهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشـيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحـولي ، رحمهمـا الله ، وكانا مـن خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه إلى متى نحن وقوف؟» قال «سر على اسم الله تعالى » فتقدما قاتلا حتى قتلا رحمهما الله ، في مكان واحد .

ومن الناس من يقاتل للوفاء ، فمن ذلك ان رجلا من الأكراد يقال له فارس ، وكان كاسـمه فـارسا وأي فـــارس . فحضر ابـــي وعمي ، رحمهما الله ، وقعة كانت بينهما وبين سـيف الدولة خلف ابن ملاعب عمل عليهم فيها وغدر بهم ، وقد حشد وجمع وهـــم غير متأهبين لما جـرى ، وسـبب ذلك انه راسـلهم وقـال: «نمضي الى اسفونا( ٨٤ ) وفيها الفرنج نأخـذها » فسـبقه اصـحابنا اليهـا وترجلوا وزحفوا الى الحصن نقبوه ، وهم في القتال وابـن مـلاعب وصل ، فأخذ خيل من كان ترجل مـن اصـحابنا ووقـع القتـــال بينهم ، بعدما كان للافرنج ، واشتد بينهم القتال ، فقـاتل فـارس الكردي قتالا عظيما وجرح عدة جراح ، وما زال يقاتل ويجرح حتى اثخن بالجراح ، وانفصل القتال ، فاجتاز به ابي وعمي ، رحمهما الله ، وهـــو محمـــول بين الرجـــال فـــوقفا عليه «وهنياه» بالسلامة . فقال «والله ما قاتلت أريد السلامة ، لكن لكم علي جميل وفضل كثير وما رأيتكم في شدة مثل هـذا اليوم ، فقلت «اقـاتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأقتل قدامكم».

وقضي الله سـبحانه انه عوفي مـن تلك الجـراح ومضى الى جبلة وفيها فخر الملك بن عمار وفي اللاذقية الافرنج ، فخـرجت خيل مـن جبلة تريد الغارة على اللاذقية ، وخـرجت خيل مـن اللاذقية تـريد

الغارة على جبلة ، فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية ، فطلع فارس من الافرنج من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكردي من الجانب الآخر كشف لأصحابه ، ، فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعا ميتين وبقيت الحصن تتصاول على الرابية ، والفارسان قتيلان .

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علان من الجند له الخيل الملاح والعدة الحسنة ، ولكن ما كان كأبيه ، فنزل علينا بذكري صاحب انطاكية يوما وقاتلناه قبل ضرب الخيام ، وهذا علان بن فارس على حصان مليح باغز (٨٥) من أحسن الخيل ، وهو واقف على رفعة من الأرض ، فحمل عليه فارس من الأفرنج وهو كالغافل ، فطعن حصانه في رقبته نفذ القنطارية ، فشب الحصان رمى علان ، وعاد الأفرنجي ، والحصان معارضه ، والقنطارية في رقبته ، كأنه يجنبه ، يتمختر بغنيمة حسنة .

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ، فمن ذلك انه كان في جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير ، رحمه الله ، وله حصان أدهم اصم مثل الجمل ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج فطعن الافرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر ، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة ، ولا فارسه ، فكنت ارى ذلك الجرح الذي في فخذه بعد ما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح ، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال ، فالتقى هو وفارس من الأفرنج ، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع ، وسلم من تلك الطعنة الثانية ، فكانت بعد ان اختمت اذا اطبق الانسان كفه وادخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح ، وسعها.

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة ابا

الحسن عليا رحمه الله ، اشتراه من كامل المشطوب ، وكان ثقيل العدو ، فاخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كفرطاب ، فبقي عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه ، قلنا «اشتريته وركبته ، ومات عندك ، كيف تطلب ثمنه قال « انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة » فعجبنا من جهله وسخافة عقله .

وجرح تحتي حصان على حمص شقت الطعنة قلبه وأصابه عدة سهام ، فاخرجني من المعركة ومنخراه يدميان بالدم كالغرلتين ، ( ٨٦ )وما انكرت منه شيئا ، وبعد وصولي الى اصحابي مات .

وجرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح ، وأنا اقاتل عليه ، ولا اعلم ، والله انه قد جرح ، لاني ما انكرت منه شيئا .

وأما خورها وضعفها على الجراح ، فإن عسكر دمشق نزل على حماة ، وهي لصلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين ، وأنا بها ، وزحفوا الينا في جمع كثير ، ووالي حماة شهاب الدين احمد بن صلاح الدين وهو على تل مجاهد ( ٨٧ ) فجاءه الحاجب غازي التلي فقال :« قد انتشرت الرجالة ، والخوذ تتلامع بين الخيام ، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم » ، فقال « امض ردهم» فقال :«والله ما يردهم الا انت او فلان» ، يعنيني ، فقال لي : تخرج تردهم» ، فقلعت زردية كانت على غلام لي لبستها وخرجت رددت الناس بالدبوس ، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل واتلعها ، فلما رددت الناس زحفوا الينا ، وما برا من سور حماة فارس غيري ، منهم من دخل المدينة وايقنوا انهم مأخوذون، ومنهم من هو مترجل في ركابي ، فاذا حملوا علينا اخرت الحصان بعنانه وأنا مستقبلهم ، وأذا عادوا مشيت خلفهم شبرة لضيق المجال

وازدحام الناس ، فضربت حصاني ذشابة في ساقه خمشته ، فـوقع بي وقام ، ووقع ، وأنا أضربه حتى قال لي الرجال الذين في ركابي «ادخل الى الباشورة (٨٨) اركب غيره» فقلتد والله مـا انزل عنه» فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم اره من غيره.

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهيب النميري حضر القتـال بين بني نمير ، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقة وملكوها ، والحرب بينهم وبين اخيه شهاب الدين مـالك بـن شمس الدولة ، وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجـود الخيل له قيمة كبيرة ، فطعن في خاصرته ، فخرجت مصارينه ، فشدها طراد في السموط لا يدوسها فيقطعها ، وقاتل حتى انقضى القتال ، فدخل به الى الرقة ، فمات .

قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمـد بن ايوب اليغسـياني ، رحمـه الله ، وذلك ان ملك الأمـراء اتـابك زنكي ، رحمه الله ، نزل على دمشق في سنة ثـلاثين وخمس مـائة بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بـوري ابن طغدكين ، رحمه الله ، في الوصول اليه ، وخـرج مـن بعلبـك متوجها الى خدمة اتابك ، فبلغـه أن عسـكر دمشـق خـرج يريد أخذه ، فأمر صـلاح الدين ان نركب للقـائه ودفـع الدمشـقيين عنه ، وهو قـد ركب ووقـف عند خيمتـه ، فـركبت في الوقت ، فقـال :« كنت قـد علمـت بـركوبي قلت :(لا والله » ، قال :« السـاعة نفـذت اليك ، فـركبت في الوقـت »! قلت :« يا مولاي حصاني يأكل شعيره ، ويلجمه الركابـي ويقعـد وهو في يده على بـاب الخيمـة ، وأنا البس عدتـي وأتقلد سـيفي وأنام ، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني ».

فوقف الى أن اجتمع عنده جماعة من العسكر ، وقال :« البسوا سلاحكم » ، وقد لبس أكثـر الحـاضرين وأنا الى جـانبه ، ثـم قال :« كم أقول لكم البسوا سلاحكم ؟» قلت :«يامولاي ، لا تكون

تعنيني »؟ قال :«نعم» ، قلت :«والله ما أقدر البس ، نحن في أول الليل ، وكزاغندي فيه زرديتان مطبقتان إذا رأيت العدو لبسته » ، فسكت

وسرنا فصبحنا عند ضمير ، فقال لي : « ماننزل نأكل شيئا؟ فقد جعت من السهر » ؟ قلت :« الأمر لك » ، فنزلنا فما استقر على الأرض حتى قال :« أين كزاغندك فأمرت الغلام فأحضره ، وأخرجته من عيبته وأخرجت السكين فتقته عند صدره ، وأظهرت جانب الزرديتين - وكان فيه زردية أفرنجية الى ذيله وفوقها أخرى الى وسطه على كل زردية البطائن واللبد واللاسين ووبر الارنب ، فالتفت الى غلام له كلمه بالتركي ولا أدري ما يقول ، فاحضر بين يديه حصانا كميتا كان اعطاه اياه اتابك في تلك الأيام كالصخرة الصماء قدت من قنة الجبل ، فقال :« هذا الحصان يصلح لهذا الكزاغند ، سلمه الى غلام فلان » ، فسلمه الى غلامي

قلت كان عمي عز الدين ، رحمه الله ، يتفقد مني حضور فكري في القتال ، ويمتحني بالمسألة ، فنحن يوما في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب ، فجرد عمي من العسكر نحو من ستين سبعين فارسا وقال لي «خذهم وسر اليهم» ، فمضينا نتراكض والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه ، ونفذت فارسا من اصحابي الى عمي وابي ، رحمهما الله ، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجل كثير أقول لهما :« سيرا بالرجالة فقد كسرتهم » ، فسارا الي ، فلما قربا حملنا عليهم كسرناهم ، ورموا خيلهم في الساروت(٨٩) ، وعبروه سباحة وهو زائد ، ومضوا وعدنا بالنصر ، فقال لي عمي : أي شيء نفذت تقول لي ؟ قلت :« نفذت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » ، فقال :« مع من نفذت

الي ؟» قلت : « مع رجب العبد» ، قال :« صدقت » ، ما أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال».

ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة ، وكان محمود بن قراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح الى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعا او ثمانية عشر ذراعا ، فوقف مقابلي موكب منهم ، وأنا في سرية نحو من خمسة عشر فارسا ، فحمل علينا منهم علوان العراقي ، وهو من فرسانهم وشجعانهم ، فلما دنا منا وما تزعزعنا رجع ورد رمحه الى خلفه ، فرأيته كالحبل مطروحا على الأرض لايقدر يرفعه ، فأطلقت حصاني عليه ، فطعنته وقد وصل إلى أصحابه ، وعدت ورياتهم على رأسي ، فلقيهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة مذقذ ، رحمه الله ، فردهم وقد اذقطع نصف يرقي ( ٩٠ ) في كزاغند علوان ، ونحن بالقرب من عمي ، وهو يراني ، فلما انفصل القتال قال لي عمي :« أين طعنت علوان العراقي ؟» قلت :« اردت ظهره ، فمال الهواء بالبيرق فوقع الرمح في جانبه ».

قال :« صدقت ، ما كنت الا حاضر القلب ذلك الوقت ».

## ( مع الأسود وسائر الحيوانات )

وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي ، ولقد رأيته يوما وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الأفرنج على قطعية قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ، رحمه الله ، فرسان افرنج وأرمن ، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلا كمنوا لهم في ظاهر شيزر ، فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم ، ووقع الصائح ، فركب عمي وأبي ، رحمهما الله ، ووقفا ، وكل من يصل اليهما قد سيراه من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي:«اتبعهم بمن معك ، وأرموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص ، وعجبت من قوله: « ارموا نفوسكم عليهم ».

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد اخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلما كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، واخرجت سكينا صغيرة من سوطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ، وخرجت التفت على يدي ، الى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار ، وهي ميته .

بل رأيته ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوما لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها ، فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا وأخي بهاء الدولة مذقذ ، رحمه الله ، بين

الأسد وبين موكب فيه ابي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة من الجند ، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الأرض ويهدر ، فحملت عليه ، فصاح علي أبي ، رحمه الله «لا تستقبله ، يا مجنون ، فيأخذك !» فطعنته . فلا والله ما تحرك من مكانه . ومات موضعه .

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم .

خلق الله عز وجل خلقه أطوارا(٩١) مختلفي الخلق والطبائع : الأبيض والأسود والجميل والقبيح ، والطويل والقصير ، والقوي والضعيف ، والشجاع والجبان ، بمقتضى حكمته وعموم قدرته .

رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتابك زنكي ، رحمه الله ، وقد أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخي وانحلت اعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه ، وهو رجل مثل الاسد ، اجسم ما يكون من الرجال ، فأحضروا له الطبيب والجرائحي . فقال الطبيب :« مابه بأس ، بل متى ما جرح ثانية مات ». فهدأ وركب وتصرف كما كان ، ثم اصابته نشابة اخرى بعد مدة احقر من « الاولة» وأقل نكاية ، فمات .

ورأيت ما يقارب ذلك ايضا ، كان عندنا بشيزر اخوان يقال لهما بنو مجاجو الواحد اسمه أبو المجد والآخر محاسن وهما ضمان رحاة الجسر بثمان مائة دينار ، وعند الرحا مذبح للغنم يذبح فيه جزارو البلد ويجتمع الزنابير على آثار الدم ، فاجتاز محاسن بن مجاجو يوما الى الرحا ، فلسعه زنبور ، فاذفلج وانقطع كلامه وأشرف على الموت ، وبقي كذلك مدة ، ثم أفاق وانقطع عن الرحا مدة فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له: «يا أخي ، ضمنا هذه الرحا بثمان مائة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها؟ وغدا ينكسر علينا ضمانها ونموت في الحبس » ، فقال له محاسن :« أنت مقصودك ان

يلسعني زنبـــور آخـــر فيقتلني ». وأصـــبح جـــاء الى الرحا ، فلسعه ، زنبور ، فمات فـأيسر الأشـياء يقتـل اذا فـرغ الأجل ، والفأل موكل بالمنطق .

فمن ذلك أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع ، فركبنا اليه فـوجدنا غلاما للأمير اسمه شـماس ، فقـال له عمـي :«أين الأســد ؟» قال : « في تلك الحلفاء » قال :« سر قدامي اليهـا ». قـال :« انت مقصودك ان يخرج الأسد يأخذني» ومشى قدامه ، فخرج الأسد كأنه مرسل الى شماس فأخذه ، فقتله دون الناس ، وقتل الأسد .

وشاهدت من الأسد مـالم أكن لأظنه ، ولا اعتقـدت ان الأسـد كالناس فيهـــا الشـــجاع وفيهـــا الجبـــان ، وذلك أن جوبان ( ٩٢ )الخيل جاءنا يوما يركض وقال :« في اجمة تل التلول ثلاثة سباع » ، فركبنا فخـرجنا اليهـا ، وإذا لبـوة خلفهـا اسدان ، فدرنا في تلك الأجمة ، فخرجت علينا اللبوة ، فحملت على الناس ووقفت ، فحمل عليهـا أخـي بهـاء الدولة ابـو المغيث منقذ ، رحمه الله ، طعنها قتلها ، وتكسر رمحه فيها .

ورجعنا الى الأجمة ، فخـرج علينا احـد السـبعين فـطرد الخيل ، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طـرد الخيل ، فإن الأسد اذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع اليه بلا شبهة ، وجعلنا اعجاز خيلنا اليه ، ورددنا رمـاحنا نحـوه ونحـن نعتقد انه يقصدنا فننشب الرماح فيه فنقتله ، فمـا راعنا الا وهـو عابر علينا كالريح الى رجل مـن اصـحابنا يقـال له سـعد الله الشيباني ، فضرب فرسه رماها ، فطعنته وسـطت القنطـارية فيه فمات مكانه .

ورجعنا الى الأسد الآخر ومعنا نحـو مـن عشرين راجـلا مـن الأرمن الأجناد رماة ، فخرج السبع الآخـر وهـو أعظمهـا خلقـة يمشي ، وعارضه الأرمن بالنشاب ، وأنا معارض الأرمـن انتـظره

يحمل عليهم يأخذ واحدا منهم فأطعنه وهو يمشي ، وكلما وقعت فيه ذشابة قد هدر ولوح بذنبه فأقول: « الساعة يحمل» ثم يعود يمشي ، فما زال كذلك حتى وقع ميتا ، فرأيت من ذلك الأسد شيئا ما ظننته .

ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك .

كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سباع معه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى الناس به ، فقيل للأمير معين الدين ، رحمه الله ، وأنا عنده: « هذا السبع قد آذى الناس . وهو في الطريق » ، وكان على مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار والليل ، فقال : « قولوا للسباع يجي به » . فقال للخوان سلار ( ٩٣ ) « أخرج من ذبائح المطبخ خروفا اتركه في قاعة الدار حتى نبصر كيف يكسره السبع». فأخرج خروفا الى قاعة الدار ، ودخل السباع ومعه السبع ، فساعة رآه الخروف ، وقد ارسله السباع من السلسلة التي في رقبته ، حمل عليه فنطحه ، فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة والخروف خلفه يطرده وينطحه ، ونحن قد غلبنا الضحك عليه ، فقال الأمير معين الدين ، رحمه الله : «ذا سبع منحوس» أخرجوه اذبحوه واسلخوه ، وهاتوا جلده ». فذبحوه وسلخوه ، وأعتق ذلك الخروف من الذبح .

ومن عجيب أمور السباع أن أسدا ظهر عندنا في أرض شيزر ، فخرجنا اليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام للمعند ( ٩٤ ) الذي كان يطيعه اهل الجبل ويكاد ان يعبد ، ومع ذلك الغلام كلب له ، فخرج الأسد على الخيل ، فجالت قدامه جافلة ، ودخل في الرجالة ، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه ، فوثب الكلب على ظهر الأسد ، فذفر عن الرجل وعاد الى الأجمة ، خرج الرجل الى بين يدي والدي ، رحمه الله ، يضحك وقال :« يا

مولاي ، وحياتك ، ما جرحني ولا آذاني ». وقتلوا الأسد ، ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه الا انقطع قلبه .

فكنت أعجب من اقدام ذلك الكلب على الأسد ، وكل الحيوان يذفر من الأسد ويتجنبه .

ولقد رأيت رأس الأسد يحمل الى بعض دورنا فترى السنانير تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات ، وما رأت الأسد قط ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن الى سفح الباشورة فلا تقربه الكلاب ولا شيء من الطير ، واذا رأت القيقان اللحم نزلت اليه ثم دنت منه صاحت وطارت ،وما أشبه هيبة الأسدعلى الحيوان بهيبة العقاب على الطير ، فان العقاب يبصره الفروج الذي مارأى العقاب قط فيصبح وينهزم ، هيبة القاها الله تعالى في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين.

وعلى ذكر السباع كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بذو الرعام رجالة يترددان من شيزر الى اللاذقية ـ واللاذقية لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر ، وفيها اخوه عز الدين ابو العساكر سلطان ، رحمهما الله ـ بالكتب بينهما قالا: «خرجنا من اللاذقية فأشرفنا من عقبة الميدة ، وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من الوطا ، فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة ، فوقفنا مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد ، فرأينا رجلا قد أقبل ، فصحنا اليه ولوحنا بثيابنا إليه نحذره من الأسد فما سمعنا ، وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى ، فرآه الأسد فوثب إليه ، فضربه به ما أخطأ قلبه ، فقتله ، ومشى اليه فتمم قتله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله وقلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء ، ثم طلع لبس ثيابه ، ونحن نراه ، وجعل ينفض شعره لينشفه من الماء ، ثم لبس فردة زربوله واتكى على جنبه وطول في الاتكاء ، فقلنا: والله ما قصر ، ولكن على من يتيه؟ ، ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتا ما ندري ما أصابه ، فنزعنا فردة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد

لسعته في ابهامه ، فمات لوقته ، فعجبا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد وقتله عقرب مثل الاصبع ، فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق

قلت: قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شركني في قتلها احد ، سوى ما شاركني فيه غيري ، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ، فمن ذلك ان الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ، ما لم يخرج فحينئذ هو الأسد ، وذلك الوقت يخاف منه ، وإذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع الى الأجمة التي خرج منها ، ولو أن النيران في طريقه ، وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة ، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه ، قبل ان يجرح ، فإذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته ، فقتلته.

فأما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعد وثبتها ، وهي تدخل في المغارات والمجاحر كما تدخل الضباع ، والأسد ما تكون الا في الغابات والآجام ، وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها معرزف( ٩٥ ) من أعمال شيزر ، فركب اليه عمي عز الدين ، رحمه الله ، وأرسل إلي فارسا وأنا راكب في شغل لي يقول: «الحقني الي معرزف » ، فلحقته وجئنا الى الموضع الذي زعموا ان النمر فيه ، فما رأيناه ، وكان هناك جب ، فنزلت عن حصاني ومعي قنطارية وجلست على فم الجب ، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالمحجر . فحركت القنطارية في ذلك الخرق الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطارية ، فلما علمنا انه في ذلك الموضع نزل معي بعض اصحابنا ، وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع بالرمح ، فاذا خرج طعنه الآخر ، وكلما اراد الصعود من الجب اوثقناه بالرماح ، حتى قتلناه ، وكان خلقة عظيمة ، إلا انه كان قد أكل من دواب القرية حتى عجز عن نفسه ، وهو دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعا.

وقد كان في كنيسة حناك ( ٩٦ ) طاقة في ارتفاع اربعين ذراعا ، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب اليها ينام فيها الى آخر النهار ، ويثب منها ينزل ويمضي ، ومقطع حناك ذلك الوقت فارس افرنجي يقال له سير آدم من شياطين الافرنج ، فأخبروه خبر النمر فقال:«إذا رأيتموه أعلموني» فجاء النمر كعادته وثب الى تلك الطاقة ، فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم ، فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء الى الكنيسة وهي خراب ، إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة ، فلما رآه النمر وثب من الطاقة عليه ، وهو على حصانه فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد .

ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فأرة مات ، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر ، حتى أنه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفا عليه من الفأر .

والنمر لايكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم ، وقد كنت مرة مجتازا بمدينة حيفا من الساحل ، وهي للافرنج ، فقال لي افرنجي منهم : «تشتري مني فهدا جيدا؟» قلت: «نعم» ، فجاءني بنمر قد رباه حتى صار في قد الكلب ، قلت: «لا» ما يصلح لي ، هذا نمر ما هو فهد فعجبت من أنسه وتصرفه مع الافرنجي .

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب ، وعيناه زرق ، والفهد وجهه مدور وعيناه سود ، وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمرا وجاء به في عدل( ٩٧ ) الى صاحب القدموس ، وهو لبعض بني محرز ، وهو يشرب ، ففتح العدل ، فخرج النمر على من في المجلس . فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلق عليه الباب ، وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم الى أن قتلوه .

وسمعت وما رأيت أن في السباع الببر ( ٩٨ ) ، وماكنت أصدق

ذلك ، فحدثني الشيخ الامام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد ابن ظفر ، رحمه الله ، قال: «سافرت من المغرب ومعي غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرب الأمور ، ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث ، إنما نحن أنا وهو على نجيبين ، فقصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه الببر وهو نائم فاعتزلنا عنه ، ونزل صاحبي عن جمله وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربة معنا وقال لي: احتفظ برأس النجيب ، ومشى الى الماء ، فلما رآه الببر قام ووثب مستقبله حتى تجاوزه . ثم صاح فثارت اليه مجريات له عدوا لحقوه .وما عارضنا ولا آذانا ، فشربنا وأسقينا ثم مضينا ».

وهكذا حدثني ، رحمه الله ، وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه .( ٩٩ )

# ( تجارب حربية )

ومن عجيب الآجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل ، وتبلغ حجرها ما لا تبلغه الذشابة ، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ، ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن أبي الغريب ، رحمه الله ، بفلت فوق (١٠٠) فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد ، وكان على برج في دار الأمير ، قنطارية فيها راية منصوبة ، وطريق الناس في الحصن من تحتها ، فضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها ، وانقلب كسرها الذي فيه السنان تنكس ووقع الى الطريق ، ورجل من أصحابنا عابر ، فوقع السنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته خرج الى الأرض وقتله .

وحدثني خطلخ مملوك لوالدي ، رحمه الله تعالى ، قال : «كنا في حصار الروم جلوسا في دهليز الحصن بعددنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو وقال: « يا مسلمين الحريم! دخل الروم معنا » فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق . فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم ، وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم ، وعدنا فتفرقنا ، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا ، فوقف وأدار وجهه الى الحائط يريق الماء ، فأعرضت عنه ، فسمعت وجبة ، فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرته والصقته بالحائط ، ومخه قد سال على الحائط ، فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه ، رحمه الله »

وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله ، فحملوه

الى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن ، فقال: «هاتوا المجبر » ، وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير ، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل المجبر الى الدهليز فقال عمي : «ما اسرع ما جبرته »! ، قال: «يا مولاي ، جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير».

## قصد الفرنج دمشق

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الافرنج ، خذلهم الله ، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها ، فاجتمع منهم خلق كثير . وسار اليهم صاحب الرها وتل باشر وصاحب أنطاكية ، فنزل صاحب انطاكية على شيزر في طريقه الى دمشق ، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها واشتراها البرجاسية ووزنوا لهم أثمانها وما عندهم شك في فتحها وملكها ، وكفر طاب اذ ذاك لصاحب أنطاكية ، فجرد من عسكره مائة فارس انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة ، فلما سار الى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفرطاب ، وأنفذوا رجلا من أصحابنا يقال له قنيب بن مالك ، فجس لهم كفرطاب في الليل ، فوصلها دارها وعاد وقال: «ابشروا بالغنيمة والسلامة»..

فسار المسلمون اليهم فالتقوا على بتكين ، فنصر الله سبحانه الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم ، وكان قنيب الذي جس لهم كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة ، فلما ظفروا بالأفرنج وقتلوهم طمع في اخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا ان يفوز بالغنيمة وحده ، فمضى يركض الى الخندق ، فرمى عليه رجل من الأفرنج من الحصن حجرا فقتله ، وكانت له عندنا والدة عجوزكبيرة تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها ، فكانت اذا ندبت على ابنها قنيب

تتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها ، فاذا فرغت من ندبها عليه وسكنت لوعتها عادت ثدياها كالجلدتين ما فيهما قطرة لبن ، فسبحان من اشرب القلوب الحنية على الاولاد .

ولما قيل لصاحب انطاكية وهو على دمشق: «قد قتل المسلمون اصحابك» ، قال: «ما هو صحيح ، قد تركت بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم».

وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على الافرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دوابهم ، فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذله ، والحمد لله رب العالمين .

ومن عجيب ما جرى في تلك الوقعة بالافرنج انه كان في عسكر حماة اخوان كرديان اسم الواحد بدر واسم الآخر عناز ، وكان هذا عناز ضعيف النظر ، فلما كسر الافرنج وقتلوا قطعوا رؤوسهم وشدوها في سموط خيلهم ، وقطع عناز رأسا وشده في سموطه ، فرآه ، قوم من عسكر حماة فقالوا له: «يا عناز ، اي شيء هذا الرأس معك ؟» قال: «سبحان الله لما جرى بيني وبينه حتى قتله» ، قالوا له: «يا رجل ، هذا رأس أخيك بدر!» فنظره وتأمله ، فإذا هو رأس أخيه ، فاستحيى من الناس وخرج من حماة ، فما ندري اين قصد ولا عدنا سمعنا له خبرا ، وكان أخوه بدر قتل في تلك الوقعة قتله الافرنج ، خذلهم الله تعالى .

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ رحمه الله ، ضرب السيوف الماضية ، فمن ذلك أن رجلا من اصحابنا يقال له همام الحاج التقى هو ورجل من الاسماعيلية ، لما عملوا على حصن شيزر ، في رواق في دار عمي ، رحمه الله ، وفي يد الاسماعيلي سكين والحاج في يده سيف ، فهجم عليه الباطني بالسكين ، فضربه همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخه على الأرض فانبسط عليها وتطاير ، فوضع همام السيف من يده وتقيأ ما في

بطنه لما لحقه من نظـر ذلك المخ مـن الغثيان ، ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي فهجم علي بالسيخ فضربته في وسط ساعده ، والسـيخ في يده قبضـته ونصـله لاصـق بساعده ، فقطع قد أربع أصابع من نصل السيخ وقطع الساعد مـن نصفه ، فأبانه ، وبقي أثر فم السيخ في حد السيف ، فـرآه صـانع عندنا فقـال: « انا أخـرج هـذا الثلم منه » ، قلت: « دعه كمـا هو ، فهو أحسن ما فيه » وهو الى الآن اذا رآه الانسان علم انه اثر سكين

ولهذا السيف خبر انا ذاكره

كان للوالد ، رحمه الله ركابي يقال له جـامع فـأغار الفـرنج علينا ، فلبس الوالد كزاغنده وخرج مـن داره ليركب ، فمـا وجـد حصانه ، فوقف ساعة ينتـظره ، فـوصل جـامع الركابـي بالحصان ، وقد ابطأ ، فضربه الوالد بهذا السـيف وهـو في غمـده متقلد به ، فقطع الجهاز والنعل الفضـة وبشتا( ١٠)كان على الركابي وصوفية وعظم مرفقة ، فرميت يده • فـكان رحمـه الله يقـوم بـه وبأولاده بعد تلك الضربة ، وكان السيف يسـمى الجـامعي بـاسم ذلك الركابي .

ومن ضربات السيوف المذكورة أن أربعة أخوة من أنساب الأمير افتخار الدولة أبي الفتوح بن عمـرون صـاحب حصـن ابـو قبيس صعدوا اليه الحصن وهو نائم أوثقوه بالجراح ، وما معه في الحصن غير ابنه ، ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قد قتلوه يريدون ابنه ، وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوة أمرا عظيمـا ، فقـام مـن فراشه عريانا ، وسيفه معلق في البيت معه ، فأخذه وخرج اليهم ، فلقيه واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم ، فضربـه افتخـار الدولة بالسيف وقفز من مقابله خوفا مـن ان يصـل اليه بسـكين كانت في يده ، ثم التفت اليه فوجده ملقى قد قتله بتلك الضربة ، وصـار الى الآخر ضربة قتله.

وانهزم الاثنان الباقيان ، فرميا انفسهما من الحصن ، فمات احدهما ونجا الآخر .

وأتانا الخبر إلى شيزر . فدفنا من هناه بالسلامة . وطلعنا بعد ثلاثة أيام إلى حصن أبو قبيس لعيادته ، فان اخته كانت عند عمي عز الدين وله منها أولاد ، فحدثنا حديثه وكيف كان أمره ، ثم قال « متن كتفي يحكني ، وما أصل اليه » ، ودعا غلاما له ليبصر ذلك الموضع أي شيء قرصه فيه ، فنظر فاذا هو جرح وفيه رأس دشن( ١٠٢ ) قد انكسر في ظهره ، وما معه منه علم ولا أحس به ، فلما قاح حكه .

وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلايقدر يخلص رجله من يده ، ويأخذ المسمار البيطاري بين أصابعه وينفذه في دف خشب البلوط ، وكان أكله مثل قوته لابل أعظم .

قد ذكرت شيئا من أفعال الرجال ، وسأذكر شيئا من أفعال النساء ، بعد بساط اقدمه .

وذلك أن انطاكية كانت لشيطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى يحج إلى البيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بغدوين الرويس وهو رجل شيخ ، وروجار شاب ، فقال لبغدوين « اجعل بيني وبينك شرطا ،إن مت قبلك كانت أنطاكية لك ، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي » ، فتعاقدا وتواثقا على ذلك .

وقدر الله تعالى أن نجم الدين ايلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، لقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة فقتله وقتل جميع عسكره ، ولم يدخل انطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا . وسار بغدوين إلى أنطاكية فتسلمها .

وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما ، وكان إيلغـازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما ، فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم ودخل في الخمار فما أفاق حتـى وصـل الملك بغـدوين الرويس إلى انطاكية بعسكره .

فكان المصاف الثاني بينهما على السـواء ، كسر بعض الفـرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج ، وقتـل مـن هؤلاء وهؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبـرت صـاحب صـهيون وبلاطنس (١٠٣) وتلك الناحية ، وكان صديقا لاتابك طغدكين صاحب دمشق ذلك الوقت ، وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالافرنج في أفامية حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق ، فقال هذا روبرت الابرص لأتابك طغدكين : « مـا أدري بـأي شيء أضـيفك ، ولكن قد ابحتك بلادي ، انفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجـدوه ، بس لايسبوا ولايقتلوا ، الدواب والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحا لهم » ، فلما اسر روبرت ، وأتابك طغدكين حاضر المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار فقال إيلغازي : « امضوا به إلى اتابك لعله يفزعه فيزيدنا في القطيعة » ، فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب ، فلما رآه مقبلا قـام شـمر أنيال قبـائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه ضرب رقبته ، فنفذ إليه إيلغازي يعتـب عليه وقال : « نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان ، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفذته إليك تفزعه لعله يزيدنا في القطيعة ، قتلته ! » قال : « انا ما أحسن افزع الا كذا »

ثم ملك بغدونين الرويس أنطاكية . وكان لأبي وعمي ، رحمهمـا الله ، عليه جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بلك ، رحمه الله ، وصار بعد قتل بلك الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغـازي ، فحمله إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهمـا الله بيعـه ، فـأحسنا إليه . فلما ملك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطعية سـامحنا بهـا . وصار أمرنا في أنطاكية نافذا .

فهو فيما هو فيه ، وعنده رسول من أصحابنا ، إذ وصل مركب الى السويدية فيه صبي عليه اخلاق ، فحضر عنده وعرفه انه ابن بيموند ، فسلم انطاكية إليه وخرج منها ضرب خيمه في ظاهرها ، فحلف لنا رسـولنا الذي كان عنده أنه - يعني الملك بغدوين - اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق ، وأهراء انطاكية ملأى من الغلة . ورجع بغدوين الى القدس .

وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن بيموند بلية عظيمة ، فنزل علينا يوما من الايام بعسكره ، فضرب خيامه ، ونحن قد ركبنا مقابلهم ، فما خرج إلينا منهم أحد ونزلوا في خيامهم ، ونحن ركاب على شرف نبصرهم ، وبيننا وبينهم العاصي ، فنزل من بيننا ابن عمي ليث الدولة يحيى بن مالك بن حميد ، رحمه الله ، يسير الى العاصي ، فظنناه يسقي فرسه ، فخاض الماء وعبر وسار نحو موكب للافرنج واقف بالقرب من خيامهم ، فلما دنا منهم نزل اليه فارس واحد ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وراغ كل واحد منهما عن طعنة الاخر ، فتسرعت أنا وأمثالي من الشباب ذلك الوقت إليهما ، ونزل الموكب وركب ابن بيموند وعسكره وجاؤوا كالسيل ، وصاحبنا قد طعنت فرسه ، فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم . وفي اجنادنا رجل كردي يقال له ميكائيل قد جاء في أوائل خيلهم منهزما ، وخلفه فارس أفرنجي قد لزه ، والكردي بين يديه ضجيج وصياح عال ، فلقيته ، فمال عن ذلك الفارس الكردي وزل عن طريقي وقصد خيلا لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا ، وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه ، فلا يلحقه ، ولا الأفرنجي يلتفت إلي إلا يريد تلك الخيل المجتمعة الى ان وصل الى خيلنا ، وانا تابعه . فطعن أصحابي حصانه طعنة أوثقته وأصحابه في إثره في جمع ما لنا بهم قوة ، فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه التقاهم فردهم جميعهم ، وعاد ، وهم معه ، وكان الفارس ابن بيموند « صاحب انطاكية وهو صبي قد امتلأ قلبه من الرعب ، ولو ترك أصحابه هزمونا إلى أن يدخلونا المدينة .

كل ذلك وأمة عجوز يقال لهـا بـريكة مملوكة لرجـل كردي مـن أصحابنا يقال له علي بن محبوب واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس ، واكثر اصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الافرنج مقبلين في ذلك الجمـع اندفعـوا نحـو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لايروعها ذلك الامر العظيم .

وانا ذاكر شيئا من أمر هذه بريكة ، وإن لم يكن مـوضعه ، لكن الحديث شجون كان مولاها علي يتـدين ولايشرب الخمـر ، فقـال لوالدي يوما « والله ، ياأمير ، ماا ستحل آكل من الديوان ولا آكل إلا من كسب بريكـة » ، وهو الجاهل يظن ان ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به .

وكانت هذه الامة لها ولد اسمه نصر رجل كبير ، وكيلا في ضـيعة للوالد ، رحمه الله ، وهو رجل يقال له بقية بن الاصيمر .

حدثني قال : « دخلت في الليل إلى البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي ، فلما دنوت مـن البلد رأيت بين المقـابر في ضـوء القمـر شخصا ما هو آدمي ولا هو وحش ، فوقفت عنه وتهيبة ، ثـم قلت في نفسي : « ما أنا بقية ! ما هذا الخوف من واحد ؟ » فوضعت سيفي ودرقتي والحربة التي معي ومشـيت قليلا قليلا ، وأنا اسـمع لذلك الشخص زجلا وصوتا ، فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشـني فقبضته ، وإذا بها بريكة مكشوفة الرأس قد نفشت شـعرها وهـي راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجـول ، قلت : « ويحـك ! أي شيء تعملين في هذا الوقت هاهنا ؟» قالت : « أسـحر » قلت : « قبحـك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع ! »

اذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمور جرت للنساء في الوقعة التـي كانت بيننا وبين الاسماعيلية ، وإن لم تكن سواء

لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان بن حراز ابـن عمـي سـنان

الدولة شبيب بن حامد بن حميد ، رحمه الله في الحصن ، وهو تربى ولدتي ولدت أنا وهو في يوم واحد يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة إلا أنه ما باشر الحرب حتى ذلك اليوم ، وأنا كنت قطبها ، فأراد علوان اصطناعه .

فقال له : « ارجع الى بيتك ، احمل منه ما تقدر عليه ورح لاتقتل ، فالحصن قد ملكناه » ، فرجع الى الدار وقال : « من كان له شيء يعطيني إياه ـ يقول ذلك لعمته ونساء عمه ـ فكل منهم اعطاه شيئا ، فهو في ذلك وإذا انسان قد دخل الدار عليه زردية وخونة ومعه سيف وترس ، فلما رآه أيقن بالموت ، فوضع الخونة ، وإذا هي أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، فقالت : « أي شيء تريد تعمل ؟ » قال : « آخذ ما قدرت عليه ، وأنزل من الحصن بحبل ، وأعيش في الدنيا » ، قالت : « بئس ما تفعل ، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح ؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل » ، ومنعته ، رحمها الله ، من الهرب . وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك .

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداتي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن ، وقالت : « البسي خفك وإزارك » فلبست وأخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن ، ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري اطلب شيئا من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات ، قلت : « ياأمي ، أين سلاحي ؟ » قالت : « يابني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالما » . قلت : « فأختي أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت : « يابني ، اجلستها على الروشن وجلست برا منها ، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » ، فشكرتها على ذلك

وشكرتها الاخت وجزتها خيرا ، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال .

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فتون . فأخذت سيفا وخرجت إلى القتال ، ومازالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم .

وما يذكر للنساء الكرام الانفة والنخوة والاصابة في الرأي .

ولقد خرجت يوما من الأيام مع الوالد ، رحمه الله ، إلى الصيد ، وكان مشغوفا بالصيد عنده من البزاة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغارية ما لايكاد يجتمع عند غيره ، ويركب في أربعين فارسا من أولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص ، وله بشيزر متصيدان : يوما يركب إلى غربي البلد الى أزوار وأنهار فيتصيد الدراج وطير الماء والارانب والغزلان ويقتل الخنازير ، ويوما يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والارانب ، فنحن في الجبل يوما وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى ، وإذا غلام قد جاء يركض قال : « هذا الأسد » ، فسلمت قبل الوالد ، رحمه الله ، لكيلا يمنعني من قتال الأسد ، وركبت ومعي رمحي فحملت عليه ، فاستقبلني وهدر ، فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطردني شوطا جيدا ، ثم رجع إلى سفح الجبل وقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة ، جائع ، وكلما دنونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد الى مكانه . وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا .

ولقد رأيته ركب مع رجل من غلمان عمي يقال له سبتكين غرزة على وركي حصانه وخرق بمخالبه ثيابه وراناته وعاد الى الجبل ، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل ، ثم حدرت حصاني عليه فطعنته نفذت الرمح فيه وتركته في جانبه ، فتقلب الى أسفل الجبل والرمح فيه ، فمات الاسد ، وانكسر الرمح ، والوالد ،

رحمه الله واقف يرانا ومعه أولاد أخيه عز الدين يبصرون ما يجري ، وهم صبيان .

وحملنا الاسد ودخلنا البلد العشاء ، واذا جدتي لأبي ، رحمها الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة - وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة - فما شككت انها قد جاءت تهنئني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت ، فلقيتها وقبلت يدها فقالت لي بغيظ وغضب : « يابني ، ايش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ، ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفورا ؟ » قلت « يا ستي، إنما اخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي » ، قالت : « لا والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعدا ويزيده منك وحشة ونفورا » ، فعلمت أنها ، رحمها الله ، نصحتني في قولها وصدقتني ، ولعمري إنهن أمهات الرجال .

ولقد كانت هذه العجوز ، رحمها الله ، من صالحي المسلمين من الدين والذمة والصوم والصلاة على أجمل طريقة ، ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي ، وكان رحمه الله ، من يتلو كتاب الله تعالى ، ووالدته تصلي بصلاته ، فأشفق عليها فقال : « يا أمي لو جلست صليت من قعود » ، قالت : « يابني ، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة ؟ لا والله ، ما اجلس » . وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شارفت المائة سنة ، رحمها الله .

وشاهدت من نخوات النساء عجبا ، وهو أن رجلا من أصحاب خلف بن ملاعب يقال له علي عبد بن أبي الريداء كان قد رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة ، فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل .

ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجائزي ، انتقل إلى

خدمة والدي بعد ما قتل خلف بن ملاعب قال : « نهضنا يوما وأرسلنا عليا عبد بن ابي الريداء بكرة يدبدب لنا(١٠٤ ) ، فجاءنا وقال : « ابشروا بالغنيمة ! هذه قافلة كثيرة مقبلة ، فنظرنا ما رأينا شيئا ، فقلنا : « ما نرى قافلة ولاغيرها ، قال : « والله ، إني لأرى القافلة وقدامها فرسان مجنبان يدفضان معارفهما ، فأقمنا في الكمين إلى العصر ، فوصلتنا القافلة والفرسان المجنبان قدامها فخرجنا أخذنا القافلة » .

وحدثني سالم العجائزي قال : « نهضنا يوما وصعد علي عبد ابن أبي الريداء يدبدب لنا ، فنام ومادرى إلا أخذه تركي من سرية أتراك ناهضه وقالوا : « أي شيء أنت ؟» قال : « أنا رجل صعلوك قد اكريت جملي لرجل من التجار في القافلة ، أعطني يدك أنك تعطيني جملي حتى ادلكم على القافلة ، فأعطاه مقدمهم يده ، فمشى بين أيديهم الى أن أوصلهم إلينا إلى الكمين ، فخرجنا عليهم أخذناهم ، وتعلق هو بالذي كان بين يديه اخذ فرسه وعدته ، وغنمنا منهم غنيمة حسنة » .

فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي عبد بن أبي الريداء إلى خدمة توفيل الافرنجي صاحب كفرطاب ، فكان ينهض بالافرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين ، وله امراة معه بكفر طاب تحت يدي الافرنج تذكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي ، فذفذت أحضرت نسيبا لها من بعض الضياع ، وأظنه أخاها ، وأخفته في البيت إلى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها علي عبد بن أبي الريداء قتلاه ، واحتملا بجميع مالها .

وأصبحت عندنا بشيزر ، وقالت : « غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر » ، فأراحت الناس من هذا الشيطان ، ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام .

وكان في أمراء مصر رجل يقال له بدي الصليحي في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه ، فسألته عنهما فقال . « كنت انهض وأنا شاب من عسقلان ، وأنا راجل ، فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الافرنج ، فصادفنا قوما منهم ، فلقيت رجلا معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء . فطعني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته فمشت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي .

ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجوا وعادوا الى رفنية ، وكانت ذلك الوقت لهم ، وخرجوا منها يريدون أفامية ، فتاهوا في الليل وجاءوا الى شيزر وهي اذ ذاك بغير سور ، فدخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مائة ثمان مائة رجال ونساء وصبيان ، وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع ، رحمهما الله ، ليلقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين أختين ووالدي رحمه الله في الحصن ، فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى أفرنجيا ، فعاد أخذ سيفه وخرج قتله ، ووقع الضياح في البلد ، وخرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهائم .

وفي شيزر امرأة من نساء اصحابنا يقال لها نضرة بنت بوز رماط خرجت مع الناس أخذت أفرنجيا أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت أخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر ، فاجتمع عندها ثلاثة من الأفرنج ، فاخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم .

ووصل عماي والعسكر في الليل ، وقد كان انهزم من الافرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد ، فصارت

الخيل تعثر في الليل في القتلى ، ولايدرون بماذا تعثر ، حتى ترجل أحدهم وأبصر القتلى في الظلام ، فهالهم ذلك واعتقدوا أن البلد قد كبس .

وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس ، فصار إلى دار والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم ، وهم ، لعنهم الله ، جنس ملعون لايألفون لغير جنسهم ، فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهرمانة داره : « ادخلي هذه الحمام ، واصلحي كسوتها ، واعملي شغلها للسفر » ، ففعلت ، وسلمها إلى بعض خدامه وسيرها إلى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه ، وكتب إليه يقول : « غنمنا من الافرنج غنيمة قد دفنت لك سهما منها » ، فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران فجعله أبوه ولي عهده ، وكبر ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوما وتدلت من القلعة بحبل ومضى بها أولئك الى سروج ، وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر .

وكان في أولئك الذين صاروا الى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مشتد ، فاسلم الابن وحسن اسلامه فيما يرى من صلاته وصومه ، وتعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والدي ، فلما طال مقامه زوجه الوالد بامرأة من قوم صالحين ، وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته ، فرزق منها ولدين وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين ، والغلام راؤول أبوهما مسرور بهما ، فأخذهما وامهما وما في بيته وأصبح بافامية عند الافرنج ، وتنصر هو واولاده بعد الاسلام والصلاة والدين ، فالله تعالى يطهر الدنيا منهم .

# ( طبائع الافرنج واخلاقهم )

سبحان الخالق الباري ، إذا خبر الانسان أمور الأفرنج سبح الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل ، وسأذكر شيئا من أمورهم وعجائب عقولهم .

كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأنس بي وصار ملازمي يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة ، فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : «ياأخي ، أنا سائر الى بلادي ، وأريدك تنفذ معي ابنك ، وكان ابني معي ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل » ، فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن ابني لو أسر ما بلغ به الاسر أكثر من رواحه إلى بلاد الافرنج ، فقلت : « وحياتك ، هذا الذي كان في نفسي ، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وماتركته يخرج معي حتى استحلفتني أني أرده إليها » ، قال :« وأمك تعيش؟ » قلت :«نعم» قال :«لا تخالفها»

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة(١٠٥ ) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : « ما أسرع ما داويت المرضى !» قال : « أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شيء يداويهم » وقال للفارس: « أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟» قال : « أعيش برجل واحدة » قال : « احضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط

ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها » فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها الذشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه » .

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ، لعنه الله ، من ألعن الافرنج وأرجسهم ، فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب أفرنجي فازال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان .

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح ، له ولد قد طلع في رقبته خنازير ، وكلما ختم موضع فتح موضع ، فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه ، فرأه رجل افرنجي فساله عنه فقال : « هو ولدي » ، قال : « تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه ؟»

فحلف . فقال : « تأخذ له اشنانا غير مطحون تحرقه وتربيه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع ، ثم خذ الرصاص المحرق وربه بالسمن ، ثم داوه به فهو يبرئه » ، فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح . وعاد إلى ما كان عليه من الصحة .

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وأزال ما كان يشكوه .

فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين .

فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة ، فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوما فكبرت ووقفت في الصلاة . فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال :« كذا صل !» فتبادر قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني ، وعدت أنا الى الصلاة ، فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل !» ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلي ، وقالوا : « هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الايام ، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق » ، فقلت : « حسبي من الصلاة !» فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

ورأيت واحدا منهم جاء إلى الامير معين الدين ، رحمه الله ، وهو في الصخرة فقال : « تريد تبصر الله صغيرا ؟» قال : « نعم » ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : « هذا الله صغير » ، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أني كنت اذا جئت الى نابلس أنزل في دار

رجل يقال له معز،داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الاخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من الذبيذ وينادي عليه ويقول : « فلان التاجر قد فتح بتيه(١٠٦ ) من هذا الخمر . من اراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا » ، واجرته عن ندائه الذبيذ الذي في تلك القنينة ، فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش فقال له : « أي شيء ادخلك إلى عند امرأتي ؟» قال : « كنت تعبان دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت الى فراشي ؟» قال : « وجدت فراشا مفروشا نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟» ، قال : « الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها؟» قال :«وحق ديني ،إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت» ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي ، رحمه الله ، قال : « فتحت حماما في المعرة أتعيش فيها ، فدخل اليها فارس منهم ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام ، فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه ، فرآني ، وأنا قريب عهد بحلق عانتي ، فقال : « سالم ، فتقربت منه ، فمد يده على عانتي وقال : سالم ، جيد ! وحق ديني اعمل لي كذا » ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته فمر يده عليه فاستوطأه(١٠٧ ) فقال: « سالم ، بحق دينك اعمل للداما » ـ والداما بلسانهم الست ـ يعني امرأته ، وقال لغلام له : « قل للداما تجيء ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها ، فاستلقت على ظهرها وقال : « اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ووهبني حق خدمتي » .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولانخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الاحدوثة .

ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة

فيها ، فقال لي بعض غلماني في الحمام : « معنا امرأة » ، فلما خرجت جلست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم اتحقق أنها امرأة ، فقلت لواحد من أصحابي : « بالله أبصر هذه امرأة هي ؟ » وأنا اقصد أن يسال عنها ، فمضى ، وأنا أراه ، رفع ذيلها وطلع فيها ، فالتفت إلي أبوها وقال : « هذه ابنتي ، ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها » ، قلت : « جيد عملت ، هذا لك فيه ثواب » .

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية ، وكان مقدما فيهم ، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه ، فحدثنا في الطريق قال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ قال : « نعم »

ومشى معنا ، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي ، فلما رآه قال : « اعطوني شمعا ، فأحضرنا له قليل من الشمع ، فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب انفه ، فمات الفارس .

فقلنا له : « قد مات » قال : « نعم ، كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح » .

دع ذا وعد القوم في هرم

نرجع من حديث مجاريهم :

حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا سمطوه وطرحوه على صخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها ، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة ، وهم

يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهن ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها .

وشهدت يوما بنابلس وقد احضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : « هو دل الحرامية على الضيعة » ، فهرب . فنفذ الملك فقبض أولاده ، فعاد إليه وقال : « انصفني ، أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية » ، فقال الملك لصاحب القرية المقطع : « أحضر من يبارزه » ، فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فأخذه ، وقال له : «تبارز» اشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته ، فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع ، يمشي ويجلي و يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند( ١٠٨ ) وهو شحنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة .

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد ، وهو يتأخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم ، فطال الامر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة ، ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة ، واعيى ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه في عينيه ولايتمكن من كثرة الدم من عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله ، فطرحوا في رقبته في الوقت حبلا وجروه شذقوه ، وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف . وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القدس ، فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى

خدمته إلى دمشق ، ففعل ، وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت متزوجة لرجل أفرنجي فقتلته ، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الافرنج · جلسوا بتيه عظيمة وملأوها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلا ورموه في البتية ، فإن كان بريا غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لايموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكحلوه .

ثم إن الرجل وصل إلى دمشق فأجرى له الامير معين الدين ، رحمه الله ، ما يحتاجه ، وقال لبعض غلمانه : « تمضي به إلى برهان الدين البلخي ، رحمه الله ، تقول له : تأمر من يقرىء هذا القرآن ، وشيئا من الفقه » ، فقال له ذلك الاعمى : « النصر والغلب ، ما كان هذا ظني » ، قال : « وما ظننت بي ؟ قال : « تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارسا » ، قال : « ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان » .

ومن الافرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لايقاس عليه .

فمن ذلك أنني نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي وبيني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكية ، فقال لصاحبي يوما : «قد دعاني صديق لي من الافرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم » ، قال : « فمضيت معه فجئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الافرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والجودة . ورآني متوقفا عن الأكل ، فقال : كل طيب النفس ، فأنا ما أكل من طعام الافرنج ، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن . ولايدخل داري لحم خنزير ، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا .

فانا بعد مجتازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول ، فاجتمع علي خلق من الافرنج ، فايقنت بالهلاك ، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني ، فجاء فقال لتلك المرأة : « ما لك ولهذا المسلم ؟» قالت : « هذا قتل أخي عرس وكان هذا عرس فارسا بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال : « هذا رجل برجاسي - اي تاجر - لايقاتل ولايحضر القتال ، وصاح على أولئك المجتمعين ، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى ، فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل» .

## من عجائب القلوب

ومن عجائب القلوب أن الانسان يخوض الغمرات ويركب الاخطار ولايرتاع قلبه من ذلك ، ويخاف ما لايخاف منه الصبيان ولا النسوان .

ولقد رأيت عمي عز الدين أبا العساكر سلطان ، رحمه الله ، وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة ، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها ، وقام من الموضع الذي يراها فيه .

وكان في غلمانه رجل شجاع معروف بالشجاعة والاقدام اسمه صندوق ، يفزع من الحية حتى يخرج من عقله ، فقال له والدي ، رحمه الله ، وهو واقف بين يدي عمي : « ياصندوق ، أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية ؟» قال : « يامولاي ، وأي شيء في هذا من العجب ؟ في حمص رجل شجاع بطل من الابطال يفزع من الفأرة ويموت » ـ يعني مولاه ـ فقال له عمي ، رحمه الله : « قبحك الله ياكذا كذا »

ورأيت مملوكا لوالدي ، رحمه الله ، يقال له لؤلؤ ، وكان رجلا جيدا مقداما ، وقد خرجت ليلة من شيزر ومعي بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشبا قد قطعته هناك لناعورة لي ، فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا ، فوصلنا إلى قرية يقال لها دبين(١٠٩ ) وما تنصف الليل ، فقلت : « انزلوا ما ندخل الجبل في الليل »

فلما نزلنا واستقررنا سمعنا صهيل حصان ، فقلنا . « الافرنج !» فركبنا في الظلام وأنا أحدث نفسي أني اطعن واحدا منهم وآخذ حصانه ويأخذ دوابنا الرجال الذين مع الدواب ،

فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان :« تقدمونا ، اكشفوا هذا الصهيل » ، فتقدموا يركضون ، فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير ، فسبق اليهم لؤلؤ وقال : « تكلموا ، والا اقتلكم كلكم » ، وهو رام جيد ، فعرفوا صوته وقالوا « حاجب لؤلؤ ؟» قال : « نعم » ، وإذا هم عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سوار (١١٠ ) رحمه الله ، قد أغاروا على بلاد الافرنج وعادوا ، فكان هذا اقدامه على ذلك الجمع ، وإذا رأى في بيته حية خرج منهزما وقال لامرأته : دونك والحية ، فتقوم إليها تقتلها .

والمحارب ، ولو أنه الاسد ، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق ، كما أصابني على حمص ، جرحت وقتل حصاني ، وضربت خمسين سيفا ـ كل ذلك لنفاذ المشيئة ، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام ، فإنه عقده في الباشات (١١١) لم يشقه فلما جذبته أريد الخروج من بينهم انحل العنان من عقدته في الباشات ، فنالني مانالني .

وقد كان صاح الصائح يوما بشيزر من القبلة ، فلبسنا وفزعنا ، فكان الصائح كذابا ، فرحل أبي وعمي ، رحمهما الله ، ووقفت بعدهما ، فوقع الصائح من الشمال من جانب الافرنج ، فركضت حصاني إلى الصائح ، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضا وقالوا : « الفرنج !» فعبرت المخاض وقلت للناس : «لابأس عليكم ، أنا دونكم !» ، ثم طلعت أركض إلى رابيه القرافطه ، وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير ، وقد تقدم منهم فارس لابس زردية وخوذة ، وقد دنا مني ، فقصدته استفرص بعده من أصحابه ، واستقبلني ، فحين حركت حصاني اليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فقمت إليه بلا ركاب ، فلما تدانينا ولم يبق غير الطعن سلم علي وخدمني وإذا هو السلار عمر خال السلار زين الدين اسماعيل بن عمر بن بختيار ، وكان نهض مع عسكر حماة إلى بلد كفر طاب ، فخرج عليهم الافرنج فعادوا الى شيزر منهزمين ، وتقدمهم الامير سوار ، رحمه الله .

فسبيل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه ، فان أيسر الأشياء وأقلها يؤذي ويهلك ، كل ذلك مقرون بما تجري به الاقدار والاقضية .

وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها ، فما نالني من شيء منها أذى .

وخرجت يوما مع والدي ، رحمه الله ، إلى الصيد في جبل قريب من البلد نصيد منه الحجل بالبزاة ، ويكون الوالد ونحن معه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازيارية أسفل من الجبل للتخليص من البزاة والوقوف على النبج ، فقامت لنا ضبعة فدخلت مغارة ، وفي تلك المغارة محجر دخلت فيه ، فصحت بغلام لي ركابي اسمه يوسف خلع ثيابه واخذ سكينه ودخل في ذلك المحجر ، وانا في يدي قنطارية مستقبل الموضع إذا خرجت طعنتها ، فصاح الغلام : « اليكم قد خرجت !» فطعنتها أخطأتها لأن الضبعة رقيقة الحجم ، فصاح الغلام « عندي ضبعة أخرى !» فخرجت في إثرها ، فقمت وقفت في باب المغارة وهي ضيقة الباب متعلية قدر قامتين انظر ما يعمل اصحابنا الذين في الوطا بالضباع التي نزلت اليهم ، فخرجت ضبعة ثالثة ، وأنا مشغول بالنظر إلى الاوائل ، فندستني( ١١٢ ) رمتني من باب المغارة الى القرارة التي تحته فكادت تكسرني ، فتأنيت بضبعة وما تأنيت بالسباع فسبحان مقدر الاقدار ومسبب الاسباب.

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء ، فمن ذلك أنني كنت يوما على باب دار والدي ، رحمه الله ، وأنا صبي عمري دون العشر سنين ، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبيا من خدام الدار ، فانهزم منه وجاء تعلق بثوبي ، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه ، فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني ، فجذبت من وسطي سكينا ضربته بها فوقعت في بزه الايسر ، فوقع ، وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد اسد فوقف

عليه ونظر الجرح واذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء ، فاصفر وارتعد ووقع مغشيا عليه ، فحمل الى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال ، فما أفاق من غشيته إلى آخر النهار ، وقد مات المجروح وقبر .

ومما يقارب ذلك : كان يزورنا إلى شيزر رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ، ويلعب بها غائبا ، يقال له أبو المرجى سالم بن قانت ، رحمه الله ، فكان يقيم عندنا السنة والأكثر والأقل ، فربما مرض فيصف له الطبيب الفصاد ، فاذا حضر الفاصد تغير لونه وارتعد ، فاذا فصده غشي عليه فلا يزال في غشيه حتى يشد فصاده ثم يفيق .

ومما يضاد ذلك أنه كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له علي بن فرج طلعت في رجله حبة فتخبثت ، وتناثرت اصابعه وانتنت رجله ، فقال له الجرائحي : « مالرجلك إلا القطع ، وإلا تلفت » ، فحصل عنده منشارا وجعل ينشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشى عليه ، فإذا هو افاق عاد إلى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه ، وداواها فبرات .

وكان ، رحمه الله ، من أجلد الرجال وأقواهم ، فكان يركب في سرجه بركاب واحد ، وفي الجانب الاخر سير تكون فيه ركبته ، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على تلك الحال ، وكنت أراه ، رحمه الله ، لايستطيع رجل يشابكه ولايقابضه ، وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته .

فأصبح يوما من الايام ، وهو وبنو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر ، أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقال : « اليوم يوم مطير ، وعندي فضلة نبيذ ومأكول تتفضلون علي بالحضور لنشرب » ، فاجتمعوا عنده ، فجلس في باب البيت وقال : « هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ ؟» يشير إلى قوته ، قالوا :« لا

والله » ، قال : « هذا يوم مطير ، وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه ، أذفذوا الى دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم ، والبيت من عندي ، ونجتمع اليوم نشرب ونتحدث » ، قالوا كلهم : « نعم ما رأيت ياأبا الحسن ، وأذفذوا احضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده ، وكان رجلا محترما ، فتعالى من خلق الخلق أطوارا ، أين جلد هذا وقوة نفسه من خور أولئك وضعف نفوسهم ؟ .

وقريب من هذا أن رجلا من بني كنانة حدثني بحصن الجسر أن رجلا في الحصن استسقى فشق بطنه فبرىء ، وعاد صحيحا كما كان ، فقلت أريد أبصره واستخبره ، وكان الذي حدثني رجل من بني كنانة يقال له أحمد بن معبد بن أحمد ، فأحضر ذلك الرجل عندي ، فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وتبرمت بالحياة ، فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي في عرض جوفي ، شققته ، فخرج منه قدر طباختين ماء - يعني قدرين - ومازال الماء يفز منه حتى ضمر جوفي ، فخيطته وداويت الجرح فبرأ ، فزال ما كان بي » ، وأراني موضع الشق في جوفه أطول من شبر ، ولا شبهة إن هذا الرجل كان له في الارض رزق يستوفيه .

وإلا فقد رأيت من استشفى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بزل نفسه ، إلا أنه مات من ذلك الفصد ، لكن الاجل حصن حصين .

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير ، وقد كنت إذا بعثني عمي ، رحمه الله ، لقتال أتراك أو افرنج أقول له : « يامولاي ، امرني بما أتدبر به إذا لقيت العدو » . فيقول : « يابني ، الحرب تدبر نفسها » ، وصدق .

وكان أمرني أن آخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تتش

والعسكر وأمضى أوصلهم إلى حصن مصياث ، وهو إذ ذاك له ، وكان يشفق عليهم من حر شيزر ، فركبت وركب أبي وعمي ، رحمهما الله ، معنا إلى بعض الطريق ، وعادا وليس معهما الا المماليك الصغار لجر الجنائب وحمل السلاح ، والعسكر كله معي ، فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب ، فقالا : « شيء قد جرى في الجسر» فدفعا خيلهما تناقلا ونخبا(١١٣) الى الجسر ، وكان بيننا وبين الافرنج ، لعنهم الله ، هدنة ، فذفذوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها الى مدينة الجسر ، وهي في جزيرة لايعبر اليها الا من جسر معقود بالحجر والكلس لايصل الافرنج إليه ، فدلهم ذلك الجاسوس على مخاضة ، فركبوا جميعهم من أفامية فأصبحوا إلى ذلك الموضع الذي دلهم عليه ، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسبوا وقتلوا ، ونفذوا بعض السبي والنهب إلى أفامية وملكوا الدور ، وعلم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته .

فلما أشرف أبي وعمي ، رحمهما الله ، على الحصن كبر أهل الحصن وصاحوا ، فالقى الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان ، فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم ، وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض ، فغرق منهم جماعة كثيرة ، كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لايلوي بعضهم على بعض ، وهم في جمع كثير ، وأبي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان .

فاقام عمي بالجسر ورجع أبي إلى شيزر ، وأوصلت أنا وأولاد عمي إلى مصياث وعدت من يومي وصلت العشاء ، فأخبرت بما جرى ، فحضرت عند والدي ، رحمه الله ، وشاورته في أن أمضي إلى عمي إلى حصن الجسر ، قال : تصل في الليل ، وهم نيام . ولكن سر اليهم من بكرة » . فأصبحت سرت وحضرت عنده . وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الافرنج .

ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم موتى ، فقلت لعمي : « يامولاي ، ما نقطع رؤوسهم وننفذها الى شيزر ؟» ، قال : « افعل » .

فقطعنا منهم نحو من العشرين رأسا ، فكان الدم يسيل منهم كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ، ولهم يوم وليلة ، وأظن الماء حفظ فيهم دمهم .

وغنم الناس منهم سلاحا كثيرا من الزرديات والسيوف والقنطاريات والخوذ والكاسات الزرد ، ورأيت رجلا من فلاحي الجسر ، قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه ، فقال له عمي يمزح معه : « أي شيء اعزلت لي من الغنيمة ؟» قال : « اعزلت لك حصانا بعدته وزرديته وترسا وسيفا » ، ومضى أحضر الجميع ، فأخذ عمي العدة وأعطاه الحصان وقال : « اي شيء بيدك ؟» قال : « يامولاي ، تقابضت أنا والافرنجي وما معي عدة ولا سيف فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه قتلته به ، وتهرأ الجلد الذي على عقد اصابعي ، وورمت يدي فما تنفعني » ، وأظهر لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام اصابعه .

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت اسمها رفول قد سباها الافرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه:« سبيت رفول !» فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا في جانب الماء سوادا ، فقلنا لبعض الغلمان : « اسبح ابصر ما هذا السواد » ، فمضى إليه فاذا ذلك السواد رفول عليها ثوب ازرق وقد رمت نفسها من على فرس الافرنجي الذي أخذها ففرقت ، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف .

فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش ، فكانت الصيحة التي وقعت في الافرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عز وجل لا بقوة ولا بعسكر ، فتبارك الله القادر على ما يشاء .

وقد يكون الترهيب في بعض الاوقات نافعا في الحرب .

من ذلك أن أتابك ، وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة ، وسار قاصدا دمشق ، فلما نزلنا القطيفة قال لي صلاح الدين رحمه الله : اركب وتقدمنا الى الفستقية( ١١٤ ) . أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر الى دمشق». فتقدمت وقفت ساعة ، وإذا صلاح الدين قد أتى في قلة من أصحابه ، فرأينا في عذراء دخانا ، فأرسل خيلا تبصر ما هو الدخان ، فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء ، فانهزموا ، فتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين أربعين فارسا فوصلنا القصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ، ونحن عند الخان ، فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون الى خلف الخان ذوهمهم أن لنا كمينا .

ونفذ صلاح الدين فارسا إلى أتابك يعرفه بما نحن فيه ، فرأينا نحوا من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين ، والعسكر خلفهم متتابع ، فوصلونا وانا هو أتابك قد تقدم ، والعسكر في إثره ، فأذكر على صلاح الدين فعله وقال : « تسرعت الى باب دمشق بثلاثين فارسا لتكسر ناموسي » ، ولامه ، وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون .

فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين:« عن أمرك آخذ هؤلاء الذين قد وصلوا ، وأعبر إلى خيل دمشق الواقفة مقابلنا أقلعهم » ، قال : « لا ، كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا ، ما تسمع أي شيء قد عمل بي ؟» .

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخييل كانوا قلعونا .

وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، من شيزر نريد كفر طاب ، ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على

كفرطاب من غلة وقطن ، فانتشر الناس في النهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد ، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن ، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال : « جاءت خيل أفامية » ، فقال عمي : « تقف أنت مقابل خيل كفر طاب ، وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية » ، فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين ، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنج ويعودون إلى شجر الزيتون ، والافرنج يعتقدون أننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا ونحن لانتزعزع فيرجعوا ، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الافرنج الذين جاؤوا من أفامية .

فقال له بعض غلمانه : « يا مولاي ، ترى ما فعل - يعنيني - تخلف عنك وما سار معك للقاء خيل أفامية » ، فقال له عمي : « لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفر طاب وراجلها ، كانوا أخذوا هذا العالم كله » .

فكان الترهيب والتخييل للافرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم لأننا كنا في قلة وهم في جمع كثير .

وجرى لي مثل ذلك بدمشق ، كنت يوما مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، فأتاه فارس فقال : « قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام » ، فقال لي : « نركب اليهم ؟ » قلت : « الأمر لك ، أمر الشاوشية تستركب العسكر معك » ، قال : « أي شيء حاجتنا إلى العسكر ؟» قلت : « وما يضرنا من ركوبهم ؟» ، قال : « ما نحتاجهم » ، وكان ، رحمه الله ، من أشجع الفرسان ، ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة .

فركبنا في نحو من عشرين فارسا فلما أن ضحونا نفذ فارسين كذا ، وفارسين كذا ، وفارسين كذا ، وفارسا كذا يكشفون الطرقات ، وسرنا نحن في قلة فحانت صلاة العصر ، فقال لغلام

لي : « ياسونج ، اشرف مغربا إلى ما نصلي » ، فما سلمنا إلا والغلام يركض ، قال : « هذه الرجالة ، وعلى رؤوسهم شقاق الخام ، في الوادي » ، فقال معين الدين ، رحمه الله : « اركبوا » ، قلت : « أمهل علينا نلبس كزاغنداتنا ، فاذا راياهم رميناهم برؤوس الخيل ، وطعناهم فما يدرون كثيرا نحن أو قليل » . قال : « إذا وصلنا إليهم لبسنا » .

وركب وسرنا اليهم ، فلحقناهم في وادي حلبون وهو واد ضيق لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع ، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة ، وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس خلف فارس ، وهم في سبعين رجلا بالقسي والنشاب .

فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلاحنا لايصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل ، فظننت أن الذين في الوادي من أصحابنا فلاحي الضياع قد فزعوا خلفهم ، والذين في سفح الجبل هم الحرامية ، فجذبت سيفي وحملت على الذين في السفح . فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بآخر روحه ، فلما صرت اليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم نشابته في فوقه ليضربني . فصحت عليه وتهددته ، فمسك يده عني ، وعدت انزلت الحصان وما اصدق اخلص منهم .

وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبل يظن أن هناك من الفلاحين من يستنفزهم ، وصاح إلي من أعلى الجبل « لاتفارقهم حتى أعود » وتوارى عنا ، فرجعت الى الذين في الوادي وقد علمت انهم من الحرامية فحملت عليهم وحدي لضيق المكان فانهزموا ، ورموا ما كان معهم من الخام ، وخلصت منهم بهيمتين كانتا معهم عليهما خام أيضا ، وطلعوا إلى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهم وما لنا إليهم سبيل .

وعاد الأمير معين الدين ، رحمه الله ، آخر النهار وما وجد من يستنفره .

ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم .

وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا ، والسبب فيه نفاذ المشيئة ، ثم قلة المخبرة بالحرب ، وذلك أننا سرنا مع الامير قطب الدين خسرو ابن دليل من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، فوصلنا الى حمص . فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له : « انا أتقدم أبصر كنيسة تعنايل الى حين تصل » ، قال : « افعل » .

فركبت ومضيت . فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول : « قد خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها ، فاركب والقني إلى الجبل » ، فركبت ولقيته ، فصعدنا في الجبل فرأينا الحرامية في واد تحتنا ، والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي ، فقال له بعض أصحابه : « ننزل اليهم ؟» قلت : « لاتفعل ، ندور على الجبل ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم الى المغرب ، ونأخذهم » ، وكانوا من بلاد الافرنج ، فقال آخر :« إلى ما ندور على الجبل ، ذكون قد وصلنا إليهم وأخذناهم » ، فنزلنا ، فلما رآنا الحرامية صعدوا في الجبل ، فقال لي : « اصعد اليهم » ، فحرصت على الطلوع ، فما قدرت .

وكان على الجبل منا خيالة ستة سبعة . فترجلوا اليهم ، وجاءوا يقودون خيلهم معهم ، وأولئك في جماعة ، فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين ، وأخذوا حصانيهما وحصانا آخر ، وسلم صاحبه ، ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة ، وعدنا نحن وقد قتل منا فارسان وأخذ منا ثلاثة حصن والقافلة ، فهذا تغرير لقلة المخبرة بالحرب .

فأما التغرير في الاقدام فما هو للزهد في الحياة ، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالاقدام ووسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبته همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواه ، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر ، فتكاد تغلبه وتصده عما يريد يفعله ، حتى يضطرها ويحملها على مكروهها ، فيعتريه الزمع وتغير اللون لذلك ، فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه .

ولقد حضرت حصار حصن الصور(١١٥) مع ملك الامراء أتابك زنكي ، رحمه الله - وقد تقدم شيء من ذكره - وكان للامير فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق رحمه الله . وكان مشحونا بالرجال الجرخية ، وذلك بعد كسرته على آمد ، فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلا من أصحابه صاح تحت الحصن : « ياجماعة الجرخية ، يقول لكم أتابك : ونعمة السلطان لئن قتل من أصحابي رجل واحد بنشابكم لأقطعن أيديكم » ، ونصب على الحصن المجانيق .

فهدمت جانبا منه وما بلغ الهدم منه بحيث تطلع اليه الرجال ، فجاء رجل من جندارية أتابك من أهل حلب يقال له ابن العريق ، طلع في تلك الثغرة وضاربهم ، بسيفه فجرحوه عدة جراح ورموه من البرج الى الخندق ، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن ، وطلع نواب أتابك إليه فأخذ مفاتيحه ونفذها الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن ارتق ، واعطاه الحصن .

واتفق أن نشابة جرخ ضربت رجلا من الخراسانية في ركبته قطعت الفلكة التي على مفصل الركبة ، فمات .

فأول ما ملك أتابك الحصن استدعى الجرخية ، وهم تسعة نفر ، فجاؤوا وقسيهم موتورة على أكتافهم ، فأمر بحز إبهاماتهم من زنودهم ، فاسترخت أيديهم وتلفت .

وأما ابن العريق فداوى جراحه وبرأ بعد أن شارف الموت ، وكان رجلا شجاعا يحمل نفسه على الاخطار .

ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتابك على حصن البارعية( ١١٦ ) وحوله صفا صخر لاتنضرب عليه الخيام ، فنزل أتابك في الوطا ووكل به الامراء بالنوبة ، فركب إليه أتابك يوما والنوبة للامير ابي بكر الدبيسي وما معه أهبة القتال ، فوقف أتابك وقال لأبي بكر : « تقدم قاتلهم » . فزحف بأصحابه وهم أعراء ، وخرج اليهم الرجال من الحصن ، فتقدم رجل من أصحابه يقال له مزيد لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة ، فقاتل قتالا عظيما وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم ، وجرح عدة جراح ، فرأيته قد حملوه الى العسكر وهو في آخر رمقه ، ثم عوفي ، وقدمه أبو بكر الدبيسي وخلع عليه وجعله من جملة جنداريته .

كان أتابك يقول لي : « ثلاثة غلمان : أحدهم يخاف الله تعالى ، وما يخافني - يعني زين الدين علي كوجك ، رحمه الله - والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى يعني نصير الدين جقر ، رحمه الله ، والآخر ما يخاف الله ولايخافني - يعني صلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ، رحمه الله -

وشهدت منه ، تجاوز الله عنه ، ما يحقق قول أتابك ، وذلك أنا زحفنا يوما إلى حمص وقد أصاب الأرض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوحل ، والرجالة يتناوشون ، وصلاح الدين واقف وأنا معه ، ونحن نرى الرجالة بين أيدينا ، فعدا واحد من الرجالة إلى رجالة حمص اختلط بهم ، وصلاح الدين يراه ، فقال لواحد من أصحابه : « هات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه » ، فمضى أحضره ، فقال له : « من هذا الذي كان انهزم من جانبك ودخل الى حمص ؟» قال : « والله ، يامولاي ، ماأعرفه » ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل ، فإن كان يعرفه أو متبه بنسب ضربت

رقبته ، وإلا ترى فيه رأيك » ، فكأنه جنح الى قولي ، فقال غلام له من خلفه : « يهرب واحد يؤخذ الذي كان جانبه تضرب رقبته اويوسط » ، فاحذقه كلامه وقال : « وسطوه » ، فرفسوه كجاري العادة ووسطوه ، وما له ذنب إلا اللجاج وقلة مراقبة الله تعالى .

وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغداد ، وأتابك يجتهد يظهر تجلدا وقوة وقد أمر صلاح الدين بالمسير الى الامير قفجاق يكبسه ، فسرنا من الموصل ستة أيام ونحن في غاية الضعف ، فوصلنا موضعه وجدناه قد تعلق في جبال كوهستان ، فنزلنا على حصن يقال له ماسر ، ونزلنا عليه طلوع الشمس ، وامرأة طلعت من الحصن قالت : « معكم خام ؟» قلنا : «أي وقت هذا للبيع والشراء ؟» ، قالت : « نريد الخام نكفنكم به ، فإلى خمسة أيام تموتون كلكم » ، تريد أن ذلك الموضع وخم .

فنزل ورتب الزحف إلى الحصن من بكرة وأمر النقابين يدخلون تحت برج من تلك البراج ، والحصن كله معمور بالطين ، والرجال الذين فيه من الفلاحين ، فزحفنا اليه وطلعنا إلى تلة ، ونقب الخراسانية برجا فوقع وعليه اثنان . أما الواحد فمات واما الاخر فأخذه اصحابنا وجاؤوا به الى صلاح الدين ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي ، هذا شهر رمضان ، وهذا رجل مسلم لاتتقلد أثمه » ، قال : « وسطوه حتى يسلموا الحصن » قلت : « يامولاي ، الحصن الساعة تملكه » ، قال « وسطوه » ، ولج فيه فوسطوه ، وأخذنا الحصن في ساعتنا تلك ، فجاء الى الباب يريد قوما من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسكر الذي كان معه ، ثم ركب وقال لي : « اركب » . فركبنا وطلعنا الى الحصن . فجلس وأحضر ناطور الحصن يعرفه بما فيه ، وأحضر بين يديه نساء وصبيانا نصارى ويهود .

فحضرت عجوز كردية ، فقالت لذلك الناطور : « رأيت ابني فلانا ؟ » ،قال : قتل، ضربته نشابة ، قالت : « فابني فلان ؟» قال :

وسطه الأمير ، فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطنة المندوفة ، فقال لها الناطور : « اسكتي لأجل الامير » قالت : « وأي شيء بقي الامير يعمل بي ، كان لي ولدان قتلهما » ، فدفعوها .

ومضى الناطور فأحضر شيخا كبيرا مليح الشيبة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين ، قال :« أي شيء هو هذا الشيخ ؟ » ، قال « إمام الحصن » ، قال : « تقدم ياشيخ تقدم » فتقدم ، حتى جلس بين يديه ، فمد يده قبض لحيته وأخرج سكينة مشدودة في بند قبائه وقطع لحيته من حكمته ، فبقيت في يده مثل البرجم( ١١٧ ) فقال له ذلك الشيخ: « يامولاي ، بأي شيء استوجبت ان تفعل بي هذا الفعل ؟» ، قال : « بعصيانك على السلطان ، قال : « والله ، ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني » .

ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للامير قفجاق يقال له الكرخيني(١١٨ ) .أخذناه فوجدوا فيه خزانه ملأى بثياب خام مخيطة صدقة لفقراء مكة ، وسبى من كان في الحصن من النصارى واليهود المعاهدين ، ونهب ما فيهما نهب الروم . فالله سبحانه يتجاوز عنه .
أقف من هذا الفصل عند هذا الحد متمثلا بقولي :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم
فينا يشيب ذكره المولودا(١١٩ )

وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والاسماعيلية في حصن شيزر اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له ابو عبد الله بن هاشم رحمه الله فرأى رجلا من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه ، والباب مفتوح وبرا منه خلق كثير من أصحابنا ومايجسر أحد يدخل اليه ، فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف :« أدخل اليه » فدخل اليه ، فما أمهله الباطني ان ضربه فجرحه ، فخرج وهو مجروح ، فقال لآخر : « ادخل اليه » فدخل اليه ، فضربه

الباطني فجرحه وخرج كما خـــرج صـــاحبه ، فقـــال ابـــن عمـــي :« يارئيس جـــواد أدخـــل اليه » فقـــال له الباطني :« يامـؤاجر ( ١٢٠ ) أنت ليش مـاتدخل ؟ تـداخل الى الناس وأنت واقف ، ادخل حتى تبصر » فدخل اليه الرئيس جـواد فقتله ، وهذا الجواد حكم في الثقاف ، رجل شجاع ثقف .

ومامر عليه الا أعوام قليلة حتى رأيته بدمشق سنة أربع وثلاثين وخمس مائة وهو علاف يبيع الشعير والتبن ، وقد كبر حتى صـار كالشن البالي يعجز عن دفع الفـأر عن علفـه ، فمـا بـال الرجال ؟ فكنت أتعجب من أول أمـره ، عندمـا صـار اليه آخـر أمره ، ومااحال من حاله طول عمره .

ولم أدر أن داء الكبر عام ، يعدي كل من أغلفه الحمـام ، فلمـا توقلت ذروة التسعين ، وأبلاني مر الأيام والسنين ، صرت كجـواد العلاف ، لاالجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، ودخل مـن الكبـر بعضي في بعض ، حتـى أذكرت نفسي ، وتحسرت على أمسي ، وقلت في وصف حالي :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردا

لم يبق طول العمر مني منة

القى بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قواي وخانني الثقتان
من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت أني حامل
جبلا وأمشي ان مشيت مقيدا

وأدب في كفي العصا وعهدتها
في الحرب تحمل اسمرا ومهندا

وأبيت في لين المهاد مسهدا
قلقا كأنني افترشت الجلمدا

والمرء ينكس في الحياة وبينما
بلغ الكمال وتم عاد كما بدا ( ١٢١ )

وانا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة وماكان أعجل تقضيه وأسرعه :

أنظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الأول

وفي تغاير صرف الدهر معتبر
واي حال على الأيام لم تحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
ذكيتها باقتداح البيض في القلل

همي منازلة الأقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل

أمضي على الهول من ليل وأهجم من
سيل وأقدم في الهيجاء من أجل

فصرت كالغادة المكسال مضجعها
لى الحشايا وراء السجف والكلل

- ٥٧٠٩ -

قد كنت أعفن من طول الثواء كما
يصدى المهند طول اللبث في الخلل

أروح بعد دروع الحرب في حلل
من الد بيقي فبؤسا لي والحلل

وما الرفاهة من رامي ولاأربي
ولا التنعيم من شأني ولا شغلي

ولست أرضى بلوغ المجد في رفه ولا
العلى دون حطم البيض والأسل ( ١٢٢ )

وكنت أظن أن الزمان لايبلى جديده ، ولايهي شديده ، وأني اذا عدت الى الشام وجدت به أيامي كعهدي ، وماغيرها الزمان بعدي ، فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب اللامع ، اللهم غفرا هذه جملة اعتراضية عرضت ، ونفثه هم اقضت ثم انقضت أعود الى المهم ، وأدع تعسف الليل المدلهم ، لو صفت القلوب من كدر الذنوب ، وفوضت الى عالم الغيوب ، علمت أن ركوب اخطار الحروب ، لاينقص مدة الاجل المكتوب .

فإنني رأيت يوم تقاتلنا نحن والاسماعيلية في حصن شيزر معتبر يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر موقت مقدر ، لايتقدم أجله ولايتأخر ، وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من القتال ، صاح انسان من جانب الحصن :« الرجال !» وعندي جماعة من أصحابي معهم سلاحهم ، فبادرنا الى الذي صاح ، فقلنا :« مالك ؟» فقال :« حس الرجال هاهنا » فجئنا الى اصطبل خال مظلم ، فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما سلاحهما ، فقتلناهما ، ووجدنا رجلا من أصحابنا مقتولا ، وهو على شيء ، فرفعناه وجدنا تحته رجلا من الباطنية قد تسجى ورفع

المقتول على صدره ، فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجـــامع بـــالقرب مـــن ذلك المكان وفيه جـــراح عظيمة ، ولاذشك أنه ميت لايتحرك ويتنفس ، وأنا والله كنت احرك رأسه على بلاط الجامع برجلي ، ولاذشـك أنه ميت كان المسـكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حسـا ، فـــادخل رأســـه ليحقـــق السماع ، فجذبه واحد منهم وضربوه بالسكاكين حتى ظنوا أنه قـد مات ، فقضى الله سبحانه ان خيطت تلك الجراح في رقبته وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة الى ماكان عليه ، فتبارك الله مقدر الأقـدار وموقت الآجال والأعمار .

وشاهدت مايقارب ذلك وهو أن الأفـرنج ، لعنهـم الله ، اغاروا علينا ثلث الليل الآخـر ، فـركبنا نريد نتبعهـم ، فمنعنا عمـي عز الدين ، رحمه الله من اتبـاعهم وقـال :« هـذه مـكيدة ، والاغارة ماتكون بالليل » ، وخرج من البلد رجالة خلفهم ماعلمنا بهم ، فوقع الأفرنج ببعضهم عند رجوعهم قتلوهم وسلم بعضهم .

وأصبحت أنا واقفا في بندر قنين قرية عند المدينة ، فرأيت ثـلاثة شخوص مقبلة : أما اثنان فكالناس ، وأما الأوسـط فمـا وجهـه كوجوه الناس ، فلما دنوا منا واذا الوسـطاني منهـم قـد ضربـه افرنجي بسيف في وسط انفه فقطع وجهه الى اذنيه ، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين ، فدخل البلد وخاط الجـرائحي وجهـه وداواه ، فالتحم ذلك الجرح ، وعوفي وعاد الى مـاكان عليه الى أن مـــات على فـــراشه ، كان يبيع الدواب ويســـمى ابـــن غازي المشطوب ، وانما سمي المشطوب بتلك الضربة ، فلا يظن ظـان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولايؤخره شدة الحـذر ، ففـي بقـائي أوضح معتبر ، فكم لقيت مـن الأهـوال ، وتقحمـت المخـاوف والأخـطار ، ولاقيت الفـرسان ، وقتلت الأســود ، وضربـت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجـروخ - وأنا من الأجل في حصن حصين - الى أن بلغت تمام التسعين ، فـرأيت

الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم :« كفى بالصحة داء » فاعقبت النجاة من تلك الأهوال ، وماهو اصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كنة الجيش ، أسهل من تكاليف العيش ، استرجعت مني الأيام بطول الحياة ، سائر محبوب اللذات ، وشاب كدر النكد ، صفو العيش الرغد ، فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

اذا كتبت بخطي جد مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد ( ١٢٣ )

ضعفت القوة ووهت ، وتقضت بلهنية العيش وانتهت ، ونكسني التعمير بين الانام ، والى الخمول يؤول تسعر الظلام ، حتى اصبحت كما قلت :

تناستني الآجال حتى كأنني
دريئة سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون منة
كأني اذا رمت القيام كسير

- ٥٧١٢ -

أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها
علي إذا رمت السجود عسير

وقد انذرتني هذه الحال أنني
دنت رحلة مني وحان مسير ( ١٢٤ )

أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ، ورددت عليهم ماخولوني من نعمهم ، لعلمي ان ضعف الهرم ، لايقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوق الشيخ الكبير ، لاينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الخمول شعاري ، ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ، ومفارقة الأوطان والتربة ، الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبر الأسير على قده ، والظمآن ذي الغلة عن ورده ، فناداني اليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، جامع كلمة الايمان ، قامع عبدة الصلبان ، رافع علم العدل والاحسان ، محيي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه ، وأيدهم بماضي سيوفه وآرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله ، كما اصفى لهم من الأكدار موارد فضله ، وأنفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه ، وحكم صوارمه في أعناق اعاديه ، برحمة

نقبت عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض لامال لدي ولاأهل فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملني الى بابه العالي بانعامه الغامر الجزيل ، وجبر ماهاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد على من سواه من علو سني ، فغمرني ربغرائب الرغائب ، وانهبني من أنعامه أهنى المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ماأسلفت سواه من الخدم ، فهو يعتد لي بذلك ويرعاه ، رعاية من كأنه

شـاهده وراه ، فعـطاياه تـطرقني وأنا راقـد ، وتسري إلي وأنا محتسب قاعد، فأنا من انعامه كل يوم في مـزيد ، واكرام كتـكرمة الأهـــل ، وأنا أقـــل العبيد ، أمنني جميل رأيه حـــــادث الحادثات ، وأخلف لي انعـــامه مـــا سلبه الزمـــان بـــالذكبات المجحفات ، وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فـرضه وسـنته مايعجز الاعناق عن حمل أيسر منته ، ولم يبق لي جوده أملا أرجـو نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله ، والرحمة التي تدارك بها العباد ، وأحيي ببـركاتها البـلاد ، والسـلطان الذي أحيى سـنة الخلفاء الراشـدين ، وأقـام عمـود الدولة والدين ، والبحـر الذي لاينضب لكثرة الواردين ماؤه ، والجواد الذي لاينقـطع مـن تتـابع الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمـى منيع ، ومـن انعامه في ربيع مـريع ، ومـن عدله في أنوار تـــكشف عنهـــم ظلم المظالم ، وتكف بسطة يد المعتدي الغاشم ، ومن دولته القاهرة في ظل وارف ، وفي سعود متتابع آنف في أثـر سـالف ، ومـاتعاقب الليل والنهار ، ودار الفلك الدوار :

دعوت وقد أمن الحافظان
وذو العرش ممن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد
سلوني فاني سميع مجيب ( ١٢٥ )

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سـيدنا محمـد وعلى آله اجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .